كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

عناصر الإبداع الفنـي
في
عينـية ابن زريق

إعداد

د / عبدالرحمن عبدالحكيم عبدالرحمن سيد

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الرابع ٢٠١٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة

بسم الله والحمد لله وصلي الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

وبعد :

فإن في تاريخ أدبنا – على اختلاف عصوره – من الشعراء من لم يأخذ حظه من الشهرة أو ينل نتاجه من الدراسة والبحث ما يستحق . ندرك هذه الظاهرة في تاريخ أدبنا وبخاصة ؛ إذ توقفنا عند شاعر من الشعراء المقلين أصحاب القصيدة الواحدة أو القصائد المعدودة .

وإهمال هذه الطائفة من الشعراء ربما يفقد الأدب العربي نتاجاً قد يكون أثراً له قيمته الفنية في عالم النقد والإبداع، ومن هنا كان توجهنا صوب هذه الدراسة التي تتوقف عند شاعر من هذه الطائفة، وهو "ابن زريق" صاحب العينية المعروفة بين المؤرخين، وأصحاب التراجم باليتيمة .

والقصيدة تعد من عيون الشعر العربي في ميدان الغربة والحنين من ناحية والغزل العفيف المعبر عن المشاعر من ناحية أخرى . والحق إن هذه القصيدة – وإن كُتبت عنها بعض المقالات في الحوليات أو على مواقع الشبكة العنكبوتية – فإنها لم تنل من الدراسة العلمية الأكاديمية ما يجلي جوانبها المختلفة ويبرز قيمتها الفنية ، ويضعها في مكانها اللائق بها في تاريخ أدبنا العربي .

لكن الباحث يرى لزاماً عليه ذكر بعض الدراسات السابقة ومنها :

- جدلية الاغتراب والوهم بين صلاح نيازي وابن زريق لربيع العبيدي .
- ابن زريق البغدادي شاعر الحزن والندم لمحمد هيثم زعرور .
- الحنين في قصيدة ابن زريق البغدادي خير الله سعيد .
- ابن زريق والقصيدة الفراقية لأحمد أمين علي .

وقد رأينا أن تكون هذه القصيدة ميداناً لهذا البحث والذي سيكون عنوانه :

" عناصر الإبداع الفني في عينية ابن زريق "

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون خطتها في مقدمة وتمهيد وخمسة فصول تعقبها خاتمة وفهرس بالمصادر والمراجع ، فأما المقدمة فتتضمن أهمية البحث وخطته ومنهجه ، وأما التمهيد فقد حوى نقاطاً ثلاثاً :

أولها : حياة ابن زريق .

وثانيها : نص القصيدة موضوع الدراسة .

وثالثها : شرح موجز للقصيدة .

الفصل الأول : وعنوانه : (التجربة الشعرية في القصيدة ؛ آفاقها وروافدها) .

الفصل الثاني : البناء اللغوي والأسلوبي في عينية ابن زريق .

الفصل الثالث : الوحدة الفنية في القصيدة .

الفصل الرابع : التصوير الفني في عينية ابن زريق .

الفصل الخامس : التشكيل الموسيقي في عينية ابن زريق .

الخاتمة : وتتضمن بعض النتائج والتوصيات التي انتهت إليها الدراسة .

وقد اعتمد الباحث في بحثه على منهج التحليل النقدي في معالجة موضوعات الدراسة، ولم يغفل المناهج الأخرى كالمنهج النفسي أو التاريخي متى دعت إلى ذلك القضية المعروضة أو الموضوع المعالج .

وأخيراً : فإني اتوجه بخالص الشكر إلى كل من أعانني على إتمام هذه الدراسة، وأسهم في خروجها على هذا النحو .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمهيد

قبل أن نلج إلى موضوع بحثنا يجدر بنا أن نقدم لهذه الدراسة بمدخل يفتح الطريق أمام القارئ لفهم النص والوقوف على بواعثه ومعطياته، ومن ثم فإن هذا التمهيد يقف عند نقاط ثلاث:

أولها: حياة الشاعر وعلاقتها بالنص " موضوع البحث " .

ثانيها: ذكر نص القصيدة معتمدين في ذلك على إحدى رواياتها والتي جاءت في كتاب " الوافي بالوفيات " لصلاح الدين الصفدي .

وثالثها: عرض موجز لمضمون القصيدة وشرح مختصر لأبياتها ، وهو ما قد يساعد في بيان جوانب النص وإضاءتها .

أولاً ـ ابن زريق حياته وإبداعه :

حين نتعرض لحياة " ابن زريق " ونحاول الولوج إلى عالمه الخاص ، قد نستغرب ما أحاط بحياة هذا الشاعر وما اكتنفها من غموض ، فعلى الرغم من أنه كاتب وشاعر ، يبدو من خلال قصيدته أنه صاحب موهبة فريدة ، وحاسة شعرية ممتازة ، وشعور مرهف رقيق ، إلا أن كتب التراجم والتاريخ لم تتوسع في عرض حياته ، ولم تذكر الكثير من تفاصيلها ، وسوف نحاول جمع شتات ما أوردته المصادر عنه وما جاء في بطون الكتب من إشارات إلى حياته الخاصة فابن زريق شاعر عاش في بغداد في العصر العباسي الثاني ، ويبدو أنه قد امتهن الكتابة، ولعله عمل في أحد دواوين الدولة آنذاك، يبدو ذلك من خلال ما أورده صاحب "

نفح الأزهار"[١] وغيره في التعريف به حين قال عنه : " إنه أبو الحسن على بن زريق البغدادي" وأما صاحب " معجم المؤلفين"[٢]، فيقول عنه : " إنه هو علي بن زريق البغدادي (أبو الحسن) شاعر كاتب هجر وطنه ، وتوفى بالأندلس " .

ويمكن القول إن ابن زريق قد عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، فقد ذكرت أكثر المصادر أنه قد توفى سنة:٤٢٠هـ/١٠٢٩م[٣]، غير أنها لم تتعرض لتاريخ مولده أو لتفاصيل حياته الخاصة غير أننا نستطيع القول بأنه قد عاش في بغداد وفي ناحية الكرخ تحديداً [٤] على أن أحد المصادر يذكر شيئاً غريباً فيجعل موطنه الشام، فصاحب " الإكمال" يقول عنه: " وأما الزريقي بتقديم الزاي وضمها وفتح الراء فهو شاعر شامي، يعرف بالزريقي"[٥]، وهذا يخالف ما أثبتته المصادر من أنه بغدادي الموطن، وما اثبته هو نفسه من

(١) شاكر بن مغامس بن محفوظ بن صالح شقير البتلوني : نفح الأزهار في منتخبات الاشعار ص٥ ، تحقيق إبراهيم اليازجي ، المطبعة الأدبية ، بيروت الطبعة الثالثة ١٨٨٦م .

(٢) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، جـ٧ ص٩٥ ، دار إحياء التراث العربي ، مكتبة المثني بيروت .

(٣)انظر : عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين جـ٧ ص٩٥ ، إبراهيم الحمد والعمر : ابن زريق بين انياب
الغربة – منار الإسلام ، العدد ٤٧٤ ص٦٦ يونيو ٢٠١٤م ، ١٤٣٥هـ .

(٤) الكرخ : هو الجانب الغربي من بغداد بني قبل الجانب الشرقي (الرصافة) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٤ ص٤٤٨ ، دار صادر بيروت ١٩٥٧م .

(٥) علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا : الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ، جـ٤ ص١٥١ ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٩م

أنه كانت له حبيبة ببغداد، وأن له منزلاً بإحدى نواحيها المشهورة، وهي الكرخ كما سنرى .

ويمكن تعليل ما ذهب إليه صاحب " الإكمال " بأن الشاعر كان كثير الترحال طلباً للرزق، فلعله مر بالشام أو ذهب يمدح بعض أمرائها فاستقر فيها مدة من الزمن، ما جعل بعضهم ينسبه إلى الشام .

وإذا كانت المصادر قد أغفلت تفاصيل الحياة الخاصة بالشاعر فإن القصيدة التي نحن بصدد دراستها قد تكشف عن بعض هذه التفاصيل ، ومن خلال دراستها يمكن القول : إن الشاعر قد عاش حياة ليست رخية ، فهو كما يبدو قليل الرزق ، وهنا تتبدي صفة أخرى اتصف بها " ابن زريق " فهو كثير الترحال ، والتنقل بين البلدان ، وهو يعلن عن ذلك صراحة في قصيدته كما سنرى .

ويمكن القول بأن "ابن زريق" كان صاحب شخصية طموحة تصبو إلى حياة أرقى ، ومعيشة أكثر ثراءً ، وبخاصة إذا علمنا أن للشاعر حبيبة أراد أن يوفر لها وله من العيش ما يكفل لهما حياة سهلة رخية ، وهنا تتبدي نقطة مهمة في حياة " ابن زريق " وهي أنه قد كان له في موطنه حبيبة تذكر المصادر أنها ابنة عمه ، كما تذكر بعضها أنه تزوجها ، وهو ما نميل إليه ، فحديثه عن المنزل الذي ضمهما وشهد أيام سعادتهما قد يوحي بذلك ، غير أنه لا يؤكده ، ولا يبدو أن " ابن زريق " قد كان له أولاد إذ لو كان الأمر كذلك لذكرهم في قصيدته التي تناولت آلام الغربة والحنين إلى الأهل والوطن ، فمن الصعب أن يوجد إنسان في مثل هذا الموقف ، وبخاصة إذا كان هذا الإنسان شاعراً رقيقاً ولا يذكر أكثر الناس اتصالاً به وارتباطاً بحياته .

و"ابن زريق" شاعر مقل قل أن تذكر المصادر له غير عينيته المشهورة ، ما دعا بعض مؤرخي الأدب والمترجمين له أن يطلق عليها اليتيمة بمعنى أنه ليس له غيرها ، والحق أن هذا القول يحتاج إلى مناقشة ، فالقصيدة بما بلغت من نضج فني تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن صاحبها قد تجاوز مراحل عديدة حتي بلغ في الشعر هذا المبلغ ، ولابد أنه في تلك المراحل قد قال العشرات بل المئات من القصائد حتى وصل إلى هذه المرحلة من النضج الذي يعلن عن موهبة فطرية من ناحية ودربة وتمرس بهذا الفن من ناحية أخرى ، على أننا لا نسلم بأن هذه القصيدة هي المروية الوحيدة في المصادر الأدبية والتاريخية فصاحب " تاريخ بغداد" [1] يذكر له قصيدة أخرى عليها مسحة من الفن وفيها درجة من النضج يقول عنه: " إنه صاحب القصيدة المشهورة التي رواها عنه أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين ومنها :

وما سر قلبي منذ شطت بك النوى أنيس ولا كاس ولا متطرف

وما ذقت طعم الماء إلا وجدته وأن ليس بالماء الذى كنت أعرف

ولم أشهد اللذات إلا تكلفاً وأي سرور يقتضيه التكلف

ويذكر الصفدي له قصيدة أخرى في رثاء ديك مطلعها :

خطب طرقت به أمر طروق فظ الحلول على غير شفيق[2]

(١) أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد وذيوله – جـ٢١ ص١٤٤ ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا – دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ ، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى دار أحياء التراث بيروت ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

فهذا كله يؤكد أننا أمام شاعر له قصائد قد سبقت تلك القصيدة ، ويعزز هذا ما يذكره رواتها في سبب رحلته ، أنه قد رحل إلى الأندلس مادحاً أحد أمرائها فكيف يمدح ويرجو العطاء إذا لم يكن شاعراً متملكاً زمام القريض ، وأما تفسير قلة ما روي له من شعر فربما يكون قد فقد مع ما فقد من تراثنا العربي ، وربما لم يكن للشاعر عناية بتدوين شعره في ظل تلك الحياة الصعبة التي أشرنا إليها آنفاً ، وأما تسمية أصحاب الأدب لهذه القصيدة باليتيمة فلا يعبر عن الكم أو عن أحادية هذه القصيدة ، بل ربما قصدوا إلى كونها فريدة في بابها متفوقة على أمثالها، وهنا يكون مقصود هؤلاء هو الكيف لا الكم ، والقيمة لا العدد ، يشير إلى ذلك عناية أصحاب الأدب بها وتقريظهم لها وإطلاق عدد من الأسماء عليها ، فمنها: "اليتيمة" كما سبق ، و" الفراقية" ؛ لأن موضوعها الغربة والفراق ، و"العينية" ؛ لأن العين هو رويها والعمود الذي قامت عليه ، فقافيتها هي العين المضمومة وإن انتهت بهاء مضمومة ، وقد اعتاد العرب إطلاق اسم القافية على القصيدة ، فيقولون : نونية ابن زيدون، وبائية ابن خفاجة، وسينية البحتري، وغير ذلك .

وقد قالوا: إن لهذه القصيدة قصة كانت الباعث على إبداعها ، وقد ذكرت المصادر هذه القصة مع اختلافات يسيرة، فصاحب " نفح الأزهار" يذكر: أنه قد كانت له ابنة عم قد كلف بها أشد الكلف ، ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقة علته، فقصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس ومدحه بقصيدة بليغة، فأعطاه عطاءً قليلاً ، فقال ابن زريق : " إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء ، ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده فاعتل غماً ومات " . قالوا: وأراد عبد

الرحمن بذلك أن يختبره ، فلما كان بعد أيام سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتاً ، وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة "[١] .

وقد عني المؤرخون ومن ترجموا " لابن زريق " بهذه القصيدة فأعلوا قدرها حتى قالوا: " من تختم بالعقيق ، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي ، وحفظ قصيدة من ابن زريق فقد استكمل الظرف "[٢] .

وقد رويت هذه القصيدة بروايات لا تختلف كثيراً ، وما رصدناه من خلاف بينها لا يتعدى الألفاظ واختلافها ، ومن ثم آثرنا الاعتماد على رواية الصفدي في الوافي مع الاستعانة بروايات القصيدة في المصادر الأخرى ، متى كان اختلاف ألفاظها يؤدي إلى اختلاف في المعنى، وهنا نختار من الألفاظ ما يعبر عن مشاعر "ابن زريق" ويتفق مع حالته النفسية.

(١) شاكر بن مغمس البتلوني : نفح الأزهار في منتخبات الاشعار ص٥ .

(٢) أبو بكر أحمد بن علي البغدادي ، تاريخ بغداد وذيوله جـ٢١ ص١٤٤ .

ثانياً ـ النص:

لا تعذليه فإن العذل[١] يولعه[٢] قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حد المضر به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عسفه[٣]فهو مضني[٤]القلب موجعه

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت[٥] بخطوب[٦] البين أضلعه

يكفيك من روعة التفنيد[٧] أن له من النوى[٨] كل يوم ما يروعه

ما آب من سفر إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالرغم يجمعه

---

(١) العذل : الملامة ، الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧هـ) : القاموس المحيط ، مادة (ع ذ ل) .

(٢) المولع : المتنزع والمتحرك من مكانه ورجل مُوَتلَعُ منتزعة ، نفسه ، مادة (و ل ع) .

(٣) العسف : التعب والشدة وعَسَّفه تعسيفاً أتعبه ، وتعسفه ظلمه ، نفسه مادة (ع س ف) .

(٤) مضني : سقيم والضنى السقيم الذي قد طال مرضه ، وأخناه المرض : أثقله . لسان العرب مادة : (ض ن ا).

(٥) ضلعت بالخطوب : تحملت ثقلها وضلع كمنع وضلع بالدين ثقل عليه حتى مال عن الاستواء ، ومُضْلع لا تقوى أضلاعها على الحمل ، القاموس المحيط مادة (ض ل ع) .

(٦) الخطوب : جمع خطب وهو الأمر العظيم ، والخطب الشأن والأمر صغر أو عظم ، نفسه مادة (خ ط ب)

(٧) التفنيد : التكذيب وإنكار العقل والفند الخرق وإنكار العقل وفنده تفنيداً كذبه وعجزه وحطّ رأيه ، نفسه مادة (ف ن) .

(٨) النوى : البعد والنية والنوى الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد أو المكان الذي يقصد يقصد إليه . انظر : لسان العرب ، مادة (ن و ى) .

تـــأبى المطالـــب إلا أن تجشـــمه[١] للـرزق كـدحا وكـم ممـن يودعـه

كأنمـــا هـــو مـــن حـــل ومرتحـــل موكـــل بفضـــاء الأرض يذرعـــه[٢]

إذا الزمـــان أراه فـــي الرحيـــل غنـــى ولـو إلـى السند أضحى وهو مربعه[٣]

ومـــا مجاهـــدة الإنســـان واصـــلة رزقـــا ولا دعـــة الإنســـان تقطعـــه

قـــد وزع الله بـــين النـــاس رزقهـــم لـم يخلـق الله مـن خلـق يضـيعه

لكـــنهم كلفـــوا رزقـــا فلســـت تـــرى مســـترزقاً وســـوى الغايـــات تقنعـــه

والحرص فـي الـرزق والأرزاق قـد قسمت بغـــي ألا إن بغـــي المـــرء يصـــرعه

والـدهر يعطـي الفتـى مـن حيث يمنعـه أربـــاً[٤] ويمنعـــه مـــن حيـــث يطمعـــه

أســـتودع الله فـــي بغـــداد لـــي قمـــرا بـــالكرخ مـــن فلـــك الأزرار[٥] مطلعـــه

ودعتـــــه بـــــودي أن يـــــودعني صفـــو الحيـــاة وأنـــي لا أودعـــه

وكـــم تشـــفع فـــي أن لا أفارقـــه وللضـــــرورة حـــــال لا تشفعـــــه

---

(١) تجشمه : تكلفه : جشم الأمر : تكلفه على مشقه ، والجشم محركة الثقل ، نفسه مادة (ج ش م) .

(٢) يذرعه يقطعه في سرعة والذريع السريع وذرع سار ليلاً أو نهاراً ، نفسه مادة (ذ ر ع) .

(٣) مربعه : الدار أو المنزل ، والربع الدار بعينها ، وجمعها رباع وربُوع وأرْبع ، والمربع ، الموضع يرتبعون فيه في الربيع . نفسه ، مادة (ر ب ع) .

(٤)الأرب : الحاجة ، والمآرب الغاية . نفسه مادة (أ ر ب) .

(٥) الأزرار: هي التي توضع في القميص فتثبته، وقد شبه الشاعر الأزرار بالنجوم ، واللباس المحيط بها كأنه فلكها الذي تدور فيه ، فهي من قبيل الاستعارة . انظر : لسان العرب ، مادة (زرر)

وكم تشبث في خوف الفراق ضحى		وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق		عني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته		بالبين عني وجرمي لا يوسعه
رزقت ملكا فلم أحسن سياسته		وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا		شكر عليه فإن الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته		كأسا تجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذقت البين قلت له		الذنب والله ذنبي لست أدفعه
ألا أقمت وكان الرشد أجمعه		لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفدها		بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجع[1] النوام بت له		بلوعة منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا		لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني		به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيد		عسراء تمنعني حظي وتمنعه
فكنت من ريب دهري جازعا فرقا[2]		فلم أوق الذي قد كنت أجزعه

(١) هجع : الهجوع بالضم ، والتهاجع النوم ليلاً . القاموس المحيط ، مادة (هـ ج ع) .
(٢) الفرق : الخائف الفزع، ورجل فرق شديد الفزع . نفسه، مادة (ف ر ق) .

بـالله يـا منـزل القصـف[1]الـذي درسـت آثــاره وعفــت مــذ بنــت أربعــه

هــل الزمــان معيــد فيــك لــذتنا أم الليــالي التــي أمضــته ترجعــه

فــي ذمــة الله مــن أصــبحت منزلــه وجـاد غيثـا علـى يمنـاك يمرعـه[2]

مــن عنــده لــي عهــد لا يضــيعه كمــا لــه عهــد صــدق لا أضــيعه

ومــن يصــدع قلبــي ذكــره وإذا جـرى علـى قلبـه ذكـري يصـدعه

لأصــبرن لــدهر لا يمتعنــي بــه ولا بــي فــي حــال يمتعــه

علمــا بــأن اصــطباري معقــب فرجــا فأضـيق الأمـر إن فكـرت أوسـعه

عسـى الليـالي التـي أضـنت بفرقتنـا جسـمي سـتجمعنا يومـا وتجمعـه

وإن تغــل[3] أحــدا منــا منيتــه فمـا الـذي فـي قضـاء الله يصـنعه[4]

(١) القصوف : الإقامة في الأكل والشراب ، وأما القصف من اللهو فغير عربي ، والقصفة رقة الأرْطي، ومنزل القصف مكان اللهو والتمتع. نفسه مادة (ق ص ف) .

(٢) يمرعه : يخصبه ، وأرض أمْروعَة بالضم خصبة . القاموس المحيط مادة (م ر ع) .

(٣) غالته المنية : قضت عليه ، والغل أخذ بعض اللحم والشحم في السلخ . نفسه مادة (غ ل) .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢١ ص ٧٧ ، ٧٨ .

ثالثاً : الشرح والتحليل:

يبدأ الشاعر قصيدته حين يوجه الحديث إلى نفسه التي يجرد منها شخصاً يخاطبه ، أو إلى زوجه أو حبيبته فيكون الاسترجاع هو وسيلة لذلك ، وفي الحالتين يطلب " ابن زريق " من مخاطبه ألا يلومه ولا يكثر من لومه ، فإن ذلك اللوم يحرك مكامن الألم في نفسه ، ويسبب له الوجع في قلبه ، وبخاصة إذا جاوز هذا اللوم الحد بحيث يؤلمه فيكون سبباً في ضرره، ويحترس الشاعر حين يشير إلى أن الحبيبة لا تقصد إلى هذا الضرر ، وإنما جاء منها على خلاف ظنها وعلى غير ما قدرت، فما أرادت إلا نصحه وما ابتغت إلا الخير له.

ومن هنا يعالج الشاعر الموقف في رفق حين يناشدها أن تستعمل الرفق والأسلوب الهادئ في النصح بديلاً عن العنف، ويعلل دعوته تلك بأن قلبه متعب مرهق لا يتحمل . وسواء كان مخاطب الشاعر هو النفس أو الزوجة فإن الخيال كان وسيلته للتحليق في أجواء ترتفع عن الواقع، وهو ما يلمح إلى قدرة فنية لدى "ابن زريق" حين استخدم التجريد في الحديث إلى نفسه، أو الاسترجاع حين استحضر الحبيبة من الماضي أو المكان البعيد .

وهذه الوسائل قد مكنته من أن يبدأ قصيدته بخط درامي متصاعد يشكل الحوار لبنته الأولى، وينطلق الشاعر من هذا الموقف ليتحدث عن نفسه بضمير الغائب، فيقول : إنه قد كان كثير التحمل للهموم حتى كثرت وتعددت فلم يعد يتحملها، ومن ثم ضاق بها صدره وضاقت عنها أضلعه، ويبين الشاعر بعضاً من هذه الخطوب التي لم يعد يتحملها فيقول: إن ترحاله الدائم وفراقه المستمر يكفي إحداث حالة من القلق والترويع بما يسببه له من لوعة وألم، فهو ما يكاد يرجع من سفر فيستقر بين أهله وأحبته حتى يعن له رأي يزعجه ، وتتبدى له أسباب سفر لا

يستطيع مقاومتها ، ومن ثم يوجه عزمه إلى ذلك السفر مع إزعاجه له وضيقه به، وهو في سفره المستمر هذا وعوده منه كأنه شخص عهد إليه أن يقطع الأرض طولاً وعرضاً، فإذا أظهر الزمان له أن رزقه في سفره وغناه في ترحاله عزم على ذلك السفر مهما بعد وطالت مسافاته حتى وإن بلغ السند ، وما أبعد تلك البلاد عن الشاعر ، والذي يدعوه إلى ذلك هو مطالب الحياة التي تأبى إلا أن تكلفه تعباً وإرهاقاً وألماً لفراق أحبته وهم كثير فكم ممن يودعه ، هذا مع علمه أن سعي الإنسان وجهده في طلب الرزق لا يوصله إليه حتماً ، ولا قعوده يقطعه عنه بالضرورة ، وهنا يلقى الشاعر مجموعة من الحكم تتصل بالمواقف السابقة، وهو يعلم تماماً أن الرزق مقسوم موزع بين الخلائق، ذلك أن الله قد خلق الخلق وكفل لهم الرزق ولم يتركهم لهلاك أو ضياع ومع ذلك فالناس حريصون على طلب الرزق بطبعهم، فأنت لا ترى طالباً للرزق وقد قنع بما وصل إليه أو حصله فإن غايات الإنسان لا تنتهي.

ثم يقول طالما أن الرزق مقسوم فالحرص عليه بغي، والبغي قد يكون سبباً في هلاك صاحبه، فعلى الإنسان أن يقنع بما قسم الله له، فالدهر قد يعطي الفتى من حيث لا يتوقع العطاء ، وقد يكون امتناع الرزق من حيث يتوقع وجوده وهذا تعقيب على الحِكم السابقة وتكميل لها ، وطالما أن الرزق مقسوم والسفر مقدر فإني سأسافر وأستودع الله حبيباً في بغداد يسكن الكرخ ، وهو فيها بمثابة القمر الذي يتبدى بين النجوم ، إنني أودعه ولم أكن أتمنى ذلك ،فإني أود أن أبقى بجانبه ، وإن ودعني صفو الحياة ، وكدَّرها قلة الرزق ، أودع الحبيبة وهي تتشفع عندي وترجوني في البقاء إلى جانبها، لكن هذه الشفاعة لا يمكن تقبلها، فالضرورة هي التي تحكم موقفي .

ولا تكتفي الحبيبة بالتشفع فهي تمسك بأهدابه وتتعلق به حين الرحيل ، وهو وقت الضحى ، فلما لم تجد إلى بقائه سبيلاً تساقطت دموعها ، واستهلت دموعه في هذا الموقف المؤثر الذي يشير إلى حالة التوحد والمشاركة الوجدانية. وفي هذا الموقف لا استطيع الصبر وإن حاولت التجلد وإظهار القدرة على التحمل، أحاول التماس العذر لتلك الجناية التي اقترفتها في حقها ، وهذه الأعذار تزيد من جنايتي عليها .

ثم يعود الشاعر إلى نفسه، فيقول: لقد كنت أعيش نعيماً كأنه الملك لكني لم أحافظ على ذلك الملك، وطبيعي أن يضيع ذلك كله لأن من يملك ملكاً ولا يحسن سياسته لابد من ضياعه وشروده من بين يديه، كذا من كان محاطاً بالنعيم مغموراً بالسعادة، ولا يشكر الله على ذلك، فإن الله لابد وأن ينتزعه منه ، ويعود الشاعر من الماضي إلى الحاضر فهو فيه يحاول تعويض فراق الحبيبة بتجرع كؤوس الصبر وهي مرة تجرع منها الكثير ، وليست هذه المرارة هي وحدها التي تؤلمني فلوم الناس لي – وهم كثيرون– يثير بواعث الألم في نفسي حين يقولون لي : آلا أقمت وتوقفت عن ترحالك ففي ذلك رشدك وسعادتك، فأجيبهم إن الذنب ذنبي ولا استطيع الدفاع عن نفسي، فإني متحمل تبعات ما أفعل، ولست أعاني الصبر على الفراق ولوم اللائمين وحسب ، فإني أقطع أيامي وأنفذها في حسرة تقطع قلبي وتحرك بواعث الألم في وجداني ، هذه الحسرة بسبب الحبيبة التي فارقتها فلم استطع النوم حين ينام الناس لما ينتابني من قلق وما يتسرب إلى من لوعة وألم، أحاول النوم وأقاوم الألم لكني قلق لا يطمئن لي مضطجع ولا أستريح في فراشي، وأنا أعلم أن الحبيبة تبادلني هذا الشعور فتعيش تلك الحالة، ومن ثم فهي قلقة لا يطمئن لها مضطجع ولا تستريح في فراش قلقاً على ولوعة لفراقي، ولم أكن أتوقع

ذلك كله ، فما كنت أحسب أن الدهر يسبب لي كل ذلك الألم ، ويفجعني بفراقي لهذه الحبيبة ، وما كنت أتوقع –أيضاً – أن الأيام ستفجعها بفراقي .

لقد كنا نأمل في حياة وداعة آمنة مطمئنة ، لكن ذلك لم يتحقق حتى حدث من الدهر ما لم نكن نتوقعه ، فأفسد ما بيننا بهذا الفراق الذي قضت به خطوب الدهر ، ومن ثم انقطع أملنا وضاع حظنا في تلك الحياة السعيدة التي كنا نأملها ، لقد كنت أخاف غِيَرَ الدهر ومفاجآته وأحذرها، وكأني كنت أستشعر ما سيقع منه ، ومع ذلك فلم أنجح في توقي ما كنت أحذره.

وإذا كان الشاعر قد ارتد إلى الماضي في مفتتح القصيدة فإنه هنا يرتد إلى أماكن بعيدة يعود إليها بذكرياته حين يستحضر صورة منزله الذي مضت أيامه ودرست آثاره منذ تركه ، يستحضره فيسأله ما إذا كان الزمان سيعيد إلينا تلك اللذة التي فقدناها والسعادة التي كنا نعيشها ، وهل تستطيع الليالي أن تعود بذلك كله ، ويبدو أنه لم يجد ذلك ممكناً ، فلا يملك إلا أن يتوجه لهذا المنزل بالدعاء يستودعه في ذمة الله هو ومن يعيش فيه، يدعو له بالسقيا وبغيث يتساقط عليه، فيملؤه بهجة وحياة بعد ضياع آثار واختفاء معالم .

إن بيني وبين حبيبي عهد صدق لا أضيعه ، كما أنه لا يضيع ذلك العهد إنها حالة شعورية متبادلة ، فإذا ذكر أمامي أو تذكرته تصدع قلبي ، وإذ ذكرت أمامه أو تذكرني تصدع قلبه ، وأمام هذا التصدع وذلك الألم لا يملك الشاعر إلا المقاومة والصبر على ما كتب عليه، فيعلن أنه سيصبر على هذا الدهر وخطوبه، هذا الدهر الذي لا يمتعني بالقرب من الحبيبة ، كما لا يمتعها بقربي منها ، ومع ذلك فإني أعلم أن صبري هذا سيعقبه الفرج، فمن يتأمل كل ضيق يجد وراءه متسعاً .

ومن هنا فإني أرجو أن يتسع أمري وتصالحني الليالي التي أرهقتني وأضنت جسمي بأن تجمعني مع من أحب وتجمعه بي ، فيتحقق أملي وأبلغ مرادي ، وهذا مبلغ جهدي فإن كان الأمر يتعلق بقضاء الله ، وكانت المنية هي قدر أحدنا فلا نستطيع أمام هذا القضاء إلا التسليم به والخضوع له ، وواضح أن الشاعر قد استنفذ جهده وحاول المقاومة إلا أنه في النهاية قد ترك الأمر لله وقضائه مصحوباً بالأمل والرجاء .

الفصل الأول

التجربة الشعرية في القصيدة "آفاقها وروافدها"

تعد التجربة عنصراً من أهم عناصر العمل الأدبي، ذلك أنها اللبنة الأولى التي ينطلق منها الأديب في بناء عمله الفني هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التجربة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنص ومبدعه ، فما من شك أن لكل شاعر تجاربه التي تعد المحك الذي يغربل واقعه بخيره وشره على مستوى المعايشة والمخزون الثقافي أو الرصيد الاجتماعي ، وهي بدورها تحمل في طياتها هذا الكم الذي يمثل عناصرها الفعلية ، ومن ثم كان لهذا العنصر خطره المنبعث من دوره الذي يؤديه في العمل الفني عموماً والإبداع الأدبي خصوصاً، وإذاً فما مفهوم هذا العنصر وما شروطه وما عناصره التي تواضع عليها النقاد؟ ولسنا نقصد إلى بسط القول في هذه القواعد العامة المتعارف عليها ،ولكنها إشارات سريعة مقتضبة ربما تشكل مدخلاً لما نحن بصدده من دراسة هذا العنصر في عينية " ابن زريق البغدادي " .

فالتجربة كما يراها أحد النقاد هي : " الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه "[1].

ويتلاءم هذا التعريف مع التجربة التي أفرزت قصيدة " ابن زريق " إذ هي مجموعة من الصور النفسية التي تولدت عنها صور كونية تعاورت نفس الشاعر فعالجها بطريقة خاصة ، ومن ثم كانت التجربة في هذه القصيدة تجربة ذاتية

(1) محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – ص٢٦٣ ، طبعة نهضة مصر للطباعة ١٩٩٦م .

وإنسانية في وقت واحد ، حيث جاءت الثانية نتاجاً طبيعياً للأولى ، وإذا توقفنا عند تعريف آخر للتجربة نجد الدكتور عبد الحميد هلال[1] يقول عنها : " إنها تعني وقوع الشاعر تحت سيطرة فكرة أو موضوع أو مشهد من الحياة ، فيتأثر بذلك وجدانه ، وينفعل به وتجيش به نفسه ، ويستغرق فيه استغراقاً كاملاً ، وتتحرك خواطره ، فيعبر عنها في صورة ملائمة ، وحينئذ يكون الشاعر قد عبر عن تجربة شعرية ".

ويتصل هذا التعريف اتصالاً وثيقاً بتجربة " ابن زريق " في قصيدته، فقد سيطرت على الشاعر حالة وجدانية مبعثها الحنين المتولد عن الغربة والرغبة العارمة في لقاء المحبوبة الناتجة عن استحضاره لمشاهد معينة من الحياة السابقة، ومن ثم تأثر بذلك وجدانه وانفعل به وجاشت به نفسه ، فعبر عنه في صورة ملائمة ظهر من خلالها أثر التجربة في إبداع الشاعر، كما تجلت هذه التجربة من خلال ذلك الإبداع .

وقارئ هذه القصيدة يدرك في سهولة ويسر وضوح الصورة النفسية في ذهن صاحبها وضوحاً كاملاً بحيث لم يشبها غموض أو إبهام ، فحالة القلق والخوف من المجهول الناتجان عن الغربة ، والحنين واللوعة الناتجان عن فراق المحبوبة هي حالات تمثلها الشاعر تمثلاً جيداً ، ومن ثم جاءت القصيدة في شكل مجموعة من الصور والأفكار المترتبة ترتيباً حسناً ، وهنا يكون قد توافر للتجربة عند الشاعر ذلك الشرط الذي وضعه بعض النقاد وهو أنها لابد أن تكون تلك الصور أو التجربة مرتبة في ذهن الشاعر ترتيباً دقيقاً قبل أن يشرع في صياغتها

(١) في النقد الأدبي الحديث مذاهب وقضايا ص٤٨ ، مطبعة الأمانة ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

في الصورة الشعرية[١] .

على أن أصحاب النقد قد اشترطوا لنجاح التجربة شرطاً آخر بعد اتضاح الصورة في ذهن صاحبها وترتيب أجزائها ترتيباً منطقياً قبل صياغتها ، وهذا الشرط هو: الصدق الفني اللازم لها والمرتبط بها ،ونعني به ذلك الشعور والانفعال المتولد في نفس الشاعر جراء صراع داخلي أو خارجي ، وهذا ما يبدو واضحاً في عينية " ابن زريق " فالنص هو عبارة عن صراع داخلي يموج في نفس الشاعر جراء معاناته الغربة وفراق الحبيبة ، هذا الصراع الذي يبدو أكثر وضوحاً في مطلع القصيدة حين نرى حديثه مع نفسه التي تلومه على السفر وتدعوه إلى البقاء ، وإذا تصورنا أن هذا الحديث الذي بدأ به الشاعر هو حوار بينه وبين زوجه، وفيه توجه الزوجة عتاباً شديداً متكرراً ولوماً قوياً موجعاً أدركنا صراعاً خارجياً مستعراً أرهق صاحبه وصراعاً داخلياً لا يقل ضراوة عنه، ومن ثم يبدو هذا الشعور والانفعال الذي تولد في نفس الشاعر وبدا واضحاً في قصيدته، ومن ثم يمكن القول: إن القصيدة قد توفر لها من شروط التجربة ما يكفل لها النجاح ويضمن لها البقاء عبر الأزمان.

ونطالع قصيدة " ابن زريق " فنلاحظ التجربة وقد تكاملت لها عناصرها التي تواضع عليها النقاد من وجدان وفكر وخيال وصورة تعبيرية ، ولعل الوجدان هو أول ما يلقانا من تلك العناصر، بل هو أظهرها في القصيدة،ويقصد بالوجدان : المشاعر والأحاسيس والانفعالات التي تسيطر على الشاعر وتملك عليه كيانه ، وهو ما أشرنا إليه سابقاً من أن " ابن زريق " قد سيطرت عليه حالة وجدانية قوامها مشاعر متضاربة ومتداخلة ترى عنده ذلك الحنين الطاغي وهذا الحب الشديد

(١) انظر : عبد الحميد هلال : في النقد الأدبي الحديث مذاهب وقضايا ، ص٤٨ .

لمحبوبته ولوطنه، كما ترى لوعة الفراق والخوف من المجهول والندم المصحوب بالألم كل هذا يجعلنا نقول : إن هذا العنصر هو العنصر المسيطر على التجربة والمالك لزمامها ، ومن ثم كانت معالجة عاطفة الشاعر ودراستها من خلال النص أمراً لازماً ، إذ هي تتصل اتصالاً وثيقاً بالوجدان فهي قوامه والأساس الذي يقوم عليه ، ونتوقف عند عاطفة " ابن زريق " في القصيدة فنرى أنه أول ما يلفت النظر عند الحديث عن عاطفة الشاعر هو ما يعتري تلك العاطفة من تداخل وتشابك ، فنرى في قصيدته ذلك الحنين الممتزج باللوعة والحسرة المشحون بالألم وعذاب الفراق ، ومن ثم فإن القصيدة بوجه عام يلفها ثوب من الحزن وتغشاها حالة من الألم الذي تثيره خيالات تتراءى للشاعر ، ومشاهدات يستحضرها فتثير لواعج الشوق ، وتذكي نار الألم المنبعثة من ذلك الفراق الذي طالما سبب له هذه المشاعر ، ولعل أهم مظهر من مظاهر الجمال الذي تراءى للشاعر فأثر في هذه العاطفة القوية هو جمال تلك الحبيبة الذي تراءى له في وضوح عندما وقفت أمامه توجه له لوماً شديداً على تركه لها وسفره بعيداً عنها وواضح أن اللوم قد تكرر منها فبدا الضيق واضحاً على " ابن زريق " ، ومن ثم منح العاطفة قدراً من القوة ، وشكل الضيق رافداً من روافد ألم الشاعر ،انظر إليه يقول :

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حد المضر به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عسفه فهو مضني القلب موجعه[1]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

إن الأسلوب الهادي واللغة الرقيقة التي خاطب بها زوجه لتخفى وراءها قدراً كبيراً من الضيق يمثله أسلوب النهي في قوله " لا تعذليه " وأسلوب الأمر في قوله " استعملي الرفق " هذا بالإضافة إلى كلمات توحي بالألم الشديد والوجع المضنى من مثل " يولعه ، اضربه ، تأنيبه ، مضني القلب موجعه ".

هذا إذا نظرنا إلى رأي من قال إن الشاعر قد بدأ قصيدته بحوار مع زوجه ولا يختلف الأمر كثيراً إذا أخذنا بالرأي القائل إن مطلع القصيدة هو حوار بين الشاعر ونفسه في أسلوب يقترب من المناجاة أو المنولوج الداخلي ، وفي كلتا الحالتين يلف المطلع جوٌ من الحزن والألم ينطلق منه الشاعر في تيار متدفق من الحزن واللوعة والألم الذي لا يقطعه أو يخفف من وطأته إلا خروج الشاعر من تجربته الأصلية و الخاصة، من مثل حديثه عن سبب سفره وطلبه للرزق وما يتفرع عن ذلك من تجارب إنسانية تأتي في صورة حكم ومواعظ تبطيء من تيار العاطفة المتدفق ، انظر إليه يقول بعد أن تحدث عن ألمه وأوجاعه:

ومـــا مجاهـــدة الإنســـان واصـــلة	رزقـــا ولا دعـــة الإنســـان تقطعـــه
قـــد وزع الله بـــين النـــاس رزقهـــم	لـــم يخلـــق الله مـــن خلـــق يضـــيعه
لكـــنهم كلفـــوا رزقـــا فلســـت تـــرى	مســـترزقاً وســـوى الغايـــات تقنعـــه
والحـرص فـي الـرزق والأرزاق قـد قسـمت	بغـــي ألا إن بغـــي المـــرء يصـــرعه
والـدهر يعطـي الفتـى مـن حيـث يمنعـه	أربـــا ويمنعـــه مـــن حيـــث يطمعـــه

والحق، إن الشاعر بهذه الحكم المتواصلة وتلك المواعظ التي قد تبدو بطولها وكثرتها مملة قد أضعف تيار العاطفة الهادر والمسيطر على النص ، غير أن الشاعر ما لبث أن عاد إلى حزنه وألمه ولوعته الناشئة عن الفراق ، فعادت العاطفة إلي قوتها وبدا صدقها في أجل صورة وذلك حين استحضر صورة الحبيبة

ولقاءه بها عند الوداع وما صدر عنها من أفعال وما بدر منها من كلمات ، ومن ثم يسهم الصدق العاطفي في تكوين لوحة فنية قوامها الكلمات والحركة والأفعال والصور الجزئية التي تشي بالحالة النفسية للحبيبين، إنه يودع قمراً في بغداد ، يودعه وهو يتمنى أن يفارقه صفو الحياة في مقابل بقائه مع حبيبه، هذا الحبيب الذي يتشفع لديه ويرجوه أن يبقى معه، وهو لا يكتفي بذلك بل هو يتشبث به، وأدمعه قد تساقطت، ومن ثم كان انفعاله بموقفه ورقته له فتساقطت أدمعه فبكيا معاً في حالة من التوحيد والمشاركة الوجدانية يقول :

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته بودي أن يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

وكم تشفع في أن لا أفارقه وللضرورة حال لا تشفعه

وكم تشبث في خوف الفراق ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه[1]

وتستمر العاطفة في قوتها والأحاسيس الملتهبة في توهجها لا يقطعها إلا خطرات سريعة تنبعث من نفس الشاعر جراء معاناته وندمه على فراق محبوبته، فقد حظي بملك لم يحسن سياسته وأوتى نعمة لم يشكر الله عليها.

ومن ثم تولدت من هذه الذاتية رؤية إنسانية وهي وإن أبطئت تدفق العاطفة إلا أنها لم تعقها أو توقفها، ذلك أن الشاعر لم يطل في عرضها فبدت وكأنها توضيح وتكميل لتجربته الذاتية.

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

ومــن غــدا لابســا ثــوب النعــيم بــلا شــكر عليــه فــإن الله ينزعــه[1]

يعود الشاعر إلى تصوير معاناته وألمه في صدق عاطفي تجليه معاني مبتكرة وألفاظ مؤثرة ولغة معبرة ، فهو يتجرع كأس الفراق ويلقي باللوم على نفسه ، إنه يقطع نهاره حزناً على محبوبه ويسهر ليله يفكر فيه ، إنه أرق لفراق حبيبه لا يستريح له جنب ، وهنا يأتي التواصل والتوحد بين الحبيبين ، وقد أبدع الشاعر في تصويره من خلال العاطفة القوية والصادقة ، فإذا كان الشاعر مضطرباً لا يستقر على حال ولا يغمض له جفن وهو بعيد في الأندلس فإن حبيبه الذي يبعد عنه كثيراً يتجاوب معه وينفعل بانفعاله، فهو لا يستطيع النوم ولا يستريح له جسد ، ثم يعود إلي نفسه ليقول : إنني لم أتوقع هذا الفراق الموجع حتى جرى الدهر بيننا بهذه اليد العسراء فأصابني بتلك البلوى ، وهذا الحدث الجلل الذي زلزل نفسه وحطم قلبه وتركه مهيضاً موجعاً .

وقد قلنا: إن عاطفة الشاعر تزداد توهجاً حين يستحضر صوراً من الماضي ، فها هو ذا يستحضر صورة منزله ببغداد وأيامه التي عاشها فيه، فيدعو بالسقيا له ولمن يسكنه من بعده.

بــالله يــا منــزل القصــف الــذي درســت آثــاره وعفــت مــذ بنــت أربعــه

هــل الزمــان معيــد فيــك لــذتنا أم الليــالي التــي أمضــته ترجعــه

فــي ذمــة الله مــن أصــبحت منزلــه وجــاد غيثــا علــى يمنــاك يمرعــه[2]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(٢) نفسه ، ص٧٨ .

وهكذا تبدت حسرة الشاعر على منزله وحزنه على ما أمضى فيه من أيام إلا إنه مع ذلك ما زال يحبه فيدعو له ولصاحبه بالرخاء والنماء ، وما يلبث الشاعر أن يعود إلى الحديث عن ما بينه وبين محبوبه من وعد وعهد ، وهنا تبدو حالة أخرى من التوحد والمشاركة الوجدانية بين الحبيبين ، فإن بينهما عهداً كلاهما يحفظه ولا يضيعه ، وإذا مر ذكر أحد الحبيبين عند الآخر أو استحضر صورته تصدع قلبه وهاجت لواعج الشوق في صدره .

ومع ذلك فإني سأصبر معتقداً أن الصبر سيعقبه الفرج فلعل الليالي التي فرقتنا تكون سبباً في اجتماعنا ، هذا إذا لم يلق أحدنا منيته فإن حدث ذلك فليس من قضاء الله مهرب .

وهكذا بدت العاطفة قوية متدفقه متداخلة يبدو فيها الحزن والحيرة والألم والمجالدة حينا والضعف حيناً آخر، وهي مع ذلك مستمرة في قوتها من أول النص إلى آخره ، لا يقطعها إلا رؤى إنسانية متولدة من التجربة الخاصة ، غير أن هذه الرؤى قد تجنح إلي الحكمة والموعظة فتقلل من تدفق التيار العاطفي العام ، ومع ذلك فهي لا توقفه ولا تؤثر عليه تأثيراً كبيراً ، إذ هي ناتجة عن تجربة الشاعر الذاتية متصلة بعواطفه الخاصة .

وأما الصدق العاطفي في هذا النص، فإن من أهم دلالاته وأوضح أماراته هو ما لاحظناه في هذا الشعر من أصالة وخلود كفل له الذيوع والبقاء عبر أزمنة متعاقبة ، وذلك بما وفر له المبدع من مقاييس كان أبرزها بعده عن الافتعال والتكلف والتقليد ، وصدوره عن شعور حي نابض بصدق التجربة والعاطفة الذاتية التي تذكيها حرارة التجربة وترفدها المعاناة الواقعية.

ومن ثم يمكن الحكم على هذا النص بأن صاحبه كان يصدر عن صدق عاطفي وواقعي في آن، فأما صدقه العاطفي فقد بدا في تلك المشاعر العاطفية نحو

الحبيبة من ناحية والوطن بمعالمه وربوعه من ناحية أخرى ، وهي مشاعر تتفجر أسي وحنينا وتنضح بالألم واللوعة ، وذلك من خلال مشاهد عرضنا لها كان أبرزها حواره مع زوجه ووداعهما عند الرحيل ، ثم كان حديثه عن المنزل الذي عاش فيه أسعد أيامه وأجمل لياليه ، وإذا كان الصدق العاطفي لا يقتضي بالضرورة مطابقة الواقع فإننا مع ذلك ندرك الصدق الواقعي من خلال إشارات يبعثها الشاعر إلي المتلقي ، ولعل أبرزها هو تلك الرحلة التي قام بها الشاعر من بغداد إلى الأندلس طلباً للرزق وسعياً إلى الحياة الكريمة ، وهي رحلة أثبتها كل من ترجم للشاعر وتحدث عن قصيدته .

هذا بالإضافة إلى الشعور بالغربة والذي يلمسه القارئ لهذه القصيدة في جلاء ووضوح ، ومن ثم فلم تكن الرحلة التي كانت عماد القصيدة رحلة صورية أو وهمية أو ضرباً من خيال أبدعته نفس شاعر محلقه في أجواء حالمة ، ولعل مشاعر الحنين والغربة والحزن على فراق المحبوبة ومفارقة الوطن والتي أبرزتها مشاهد وصور أشرنا إليها هي أكبر دليل على ما صاحب الصدق العاطفي في هذه القصيدة من صدق واقعي يؤازره ويذكيه ويشعل جذوته .

ويأتي العنصر الثاني وهو الفكر في مرتبة تالية للوجدان لكنه عنصر له أهميته وقيمته في العمل الفني ، فإذا كانت العواطف مختلفة والمشاعر متداخلة والأحاسيس مضطربة فإن للعقل أو الفكر دوراً يؤديه حيال ذلك ، فهو الذي يؤلف بين شتيت العواطف ، ومختلف المشاعر ويجمع متناثرها ويكون بناءها ، وهو ما رأيناه عند " ابن زريق " الذي لم يختف عنصر الفكر عنده على الرغم من طغيان الوجدان وتوهج العواطف ، فقد رأينا الشاعر ينتقل من حالة الألم الناتجة عن لوم النفس أو لوم الزوجة له على السفر والغربة وترك الأهل والأوطان إلي حالة من معالجة أسباب ذلك الألم من خلال رؤى إنسانية تولدت من تجربته الذاتية ، ثم

يعود إلي استحضار مشاهد من حياته الماضية تذكي نار الألم في قلبه ، ثم يخرج منها إلى حالة من التسليم والرضى بقضاء الله ، وهو في ذلك كله يقيم بناءاً فنياً متكاملاً لا نظن أن فكر الشاعر كان بعيداً عنه .

وللخيال دوره في تشكيل تجربة الشاعر ، وهو دور لا يقل خطراً عن دور الوجدان والفكر ، فبواسطته تمكن " ابن زريق " من نقلنا من عالمنا الحقيقي إلى عالمه النفسي ، وهو عالم يصعب الولوج إليه عن طريق ألفاظ اللغة الدالة على الحقيقة، ومن ثم كانت استعانة الشاعر بعنصر الخيال ليخرج بواسطته من تلك المشكلة ، على أن الشاعر قد استطاع المزج بين العناصر الثلاث: وهي الوجدان والفكر والخيال، ومن ثم جاء دور العنصر الرابع المتمم للتجربة والذي لا يتحقق وجودها المادي بدونه، وذلك العنصر هو الصورة التعبيرية بما تتضمنه من ألفاظ حقيقية موحية وتعبيرات مجازية بأشكال مختلفة، وموسيقى داخلية وأخرى خارجية، ومن خلال هذه الصور التعبيرية استطاع الشاعر تجسيد الحالة النفسية التي سيطرت عليه عاطفياً وعقلياً .

وإذ قد تأكد لدينا تمام عناصر التجربة واكتمال شروطها في قصيدة " ابن زريق " كان لابد من البحث عن مصدر هذه التجربة ورافدها الذي تستمد قوتها منه ، إذ لابد لكل تجربة يمر بها شاعر من مصدر يشكل الأساس الذي تبنى عليه والقاعدة التي ينطلق منها الشاعر حين ينتقل من عالم الواقع إلى عالمه الخاص.

وتتعدد مصادر التجربة وتتنوع روافدها فمنها المشاعر الخاصة ومنها العقيدة ومنها الزمان (التاريخ) ومنها المكان (البيئة) وغيرها ، وشاعرنا في هذه القصيدة يعيش تجربة ذاتية ومن ثم كان رافدها ومصدرها هو المشاعر الخاصة والإحساس الداخلي المتصل بالشاعر ، فـ " ابن زريق " يعيش حالة من القلق الدائم

والاضطراب المستمر ، فهو لا يكاد يرجع من سفره ويستقر بين أهله وأحبائه إلا وتحرك في خاطره هاجس يزعجه ، وهو إرادة السفر وما هذه الإرادة إلا نتاج ضيق العيش وقلة الرزق الذي يسبب له ضيقاً شديداً، فها هو ذا يقول مخاطباً زوجه التي تلومه وتعاتبه :

يكفيك من روعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه

ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأي إلى سفر بالرغم يجمعه

تأبى المطالب إلا أن تجشمه ... للرزق كدحا وكم ممن يودعه

كأنما هو من حل ومرتحل ... موكل بفضاء الأرض يذرعه

إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ... ولو إلى السند أضحى وهو مربعه[1]

إنها حالة من الخوف والقلق والترويع يعيشها الشاعر جراء هذه الفرقة والغربة التي تروعه كل يوم ، فهو دائم السفر لا يقر له قرار، وما ذلك إلا لطلب الرزق الذي يكلفه الكثير من الكد والجهد ووداع الأحبة والأهل ، إنه دائم السفر كأنه موكل بالأرض يقطعها ويطأ كل جوانبها ، فما إن يعرف مكاناً فيه رزقه إلا سعى له حتى ولو كان في آخر الدنيا ، وهنا يبرز الشعور بالغربة بوصفه نتيجة مترتبة على القلق والخوف من حالة السفر الدائم ، وهو شعور يزيد في ألمه ويضاعف لوعته ، ويشتد الشعور بالغربة عندما يستحضر الشاعر مشهد الوداع بينه وبين الحبيبة التي تتشفع عنده ، بل وتتشبث به لا تريد فراقه .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

يتذكر ذلك كله فتؤلمه الغربة، ويحاول علاج هذه الحالة عن طريق كؤوس الصبر التي يتجرعها ، ولكنها لا تجدي.

اعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأسا تجرع منها ما أجرعه[1]

وكم من لائم لامه على هذا الفراق وربما شمت فيه حين قال له ها هو ذا الفراق وقد ذقت ألمه ، فلا يملك الشاعر إلا لوم نفسه

كم قائل لي ذقت البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه[2]

ويحاول الشاعر الفكاك من هذا الشعور بالغربة فلا يجد وسيلة يقطع بها أيامه إلا الحسرة والندم على ما تركه من أحبة ووطن لا يكاد يتركه حتى يحن إليه.

إني لأقطع أيامي وأنفدها بحسرة منه في قلبي تقطعه[3]

وإذا كانت حالة القلق والخوف قد أنتجت شعوراً مؤلماً بالغربة ، فإن الغربة قد ولدت شعور بالحنين والرغبة في العودة إلى الوطن والحبيبة.

يستحضر صورة منزله فيتذكر أيامه فيه ويدعو له بالسقي ، يقول :

بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ص٧٨ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

فـي ذمـة الله مـن أصـبحت منزلـه وجـاد غيثـا علـى يمنـاك يمرعـه[1]

وينتابه شعوراً بالحنين إلى لقاء الحبيبة، فيقول :

ومـــن يصـــدع قلبـــي ذكـــره وإذا جـرى علـى قلبـه ذكـري يصـدعه

لأصـــــبرن لـــــدهر لا يمتعنـــــي بـــه ولا بـــي فـــي حـــال يمتعـــه

علمـا بـأن اصـطباري معقـب فرجـا فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه[2]

إنها مشاعر متصلة أفرزت تجربة متكاملة كان مصدرها الإحساس الذاتي والعاطفة الخاصة ، على أن مصدراً آخر لتجربة الشاعر كان له دوره في تمام التجربة ، وإبراز معاناة الشاعر والإعلان عن فكره ورؤيته للكون والحياة ، وهو رافد العقيدة هذا الرافد الذي أسهم في إنتاج تجربة إنسانية تولدت من التجربة الذاتية للشاعر ، فمعاناته التي عاشها ولدت عنده آراء في الكون والناس والحياة وقد انطلق في هذه الرؤى من عقيدة تربى عليها ، ووقرت في قلبه واتصلت بفكره .

إنه دائم السفر طلباً للرزق ، وإن شئت فقل: هروباً من الفقر وشظف العيش ، لكنه على الرغم من ذلك يعلم علم اليقين أن الرزق مكتوب وليس بوسع العبد أن يزيد فيه أو ينقص مهما جد وسعى .

ومـــا مجاهـــدة الإنســـان واصـــلة رزقـــا ولا دعـــة الإنســـان تقطعـــه

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(٢) نفسه

قـــد وزع الله بـــين النـــاس رزقهـــم لـم يخلـق الله مـن خلـق يضـيعه[١]

ومـع أن الـرزق مقسوم إلا أن الحـرص والصراع من أجلـه لا يكـاد ينتهـي ، وقد يكون ذلك سبباً في مصرع من يحرص عليه.

والحـرص فـي الـرزق والأرزاق قـد قسـمت بغـي ألا إن بغـي المـرء يصـرعه[٢]

ويواصل الشاعر بث أفكاره ورؤاه فيقول :

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه أربـاً ويمنعـه مـن حيـث يطمعـه[٣]

على أننا نأخذ على الشاعر نسبته المنـع والإعطاء للدهر، وربما جاء ذلك منه على سبيل المجاز .

ويمكن القول : إن رافداً ثالثاً هو تجارب الشاعر وخبراتـه قد كـان مصدراً للتجربة في هذه القصيدة، وهو ما رأيناه في البيت السابق . والشاعر مؤمن بقضاء الله مسلم بحكمه، وهو مـا يجعلنـا نقول: إن " ابن زريق " قد انطلق في فكره من عقيدة ثابتة ، إنه يأمل في العودة ويرجو لقاء الحبيبة ، وإذا لم يقع ذلك الأمل وهذا الرجاء فإن ذلك هو حكم الله ولا حيلة لنا أمام هذا القضاء . يقول :

عسـى الليـالي التـي أضـنت بفرقتنـا جسـمي سـتجمعنا يومـا وتجمعـه

وإن تغـــل أحـــدا منـــا منيتـــه فما الذي في قضاء الله يصنعه[٤]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، ص٧٧ .

(٢) نفسه، ص٧٧ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

وهكذا شكلت المشاعر الخاصة والعقيدة رافدين لتجربة الشاعر ، وهو ما كان بدوره سبباً في أخذ التجربة شكلين مختلفين في القصيدة ، حيث بدت التجربة الذاتية طاغية على أنها لم تخف تماماً التجربة الإنسانية ، وهو ما يؤكد دور الرافدين في تشكيل هذه التجربة، ويبقى أن نقول: إن التجربة الشعرية تتنوع ما بين ذاتية وإنسانية وتاريخية وخيالية وغيرها ، فإلي أي هذه الأنواع تنتمي تجربة الشاعر .

وبناءً على ما سبق يمكن القول : إن التجربة في هذه القصيدة هي من التجارب الذاتية التي تنبع من مشاعر خاصة وإحساس داخلي يتصل بالمبدع .

ويأتي هذا النوع من التجارب في إطار ما يسميه بعض النقاد بالتجربة الشخصية ، ذلك أنها تتصل اتصالاً مباشراً بذات الأديب أو شخصيته من ناحية والأحداث المرتبطة بهذا الأديب من ناحية أخرى ، فالتجربة الشخصية "هي تلك التي تسوقها للأديب أو الشاعر أحداث الحياة "[1] على أن تكون هذه الأحداث مؤثرة في الأديب بحيث تنتج عنده شعوراً خاصاً أو إحساساً داخلياً متميزاً .

وهذا ما رأيناه عند "ابن زريق" فالحدث المهم في حياته هو ذلك السفر الدائم والترحال المستمر، وما يرتبط بذلك من مواقف الوداع للأهل عموماً والحبيبة خصوصاً ، ومن ذكريات تثيرها الغربة عن الوطن ومرابع الصبا ومنازل العيش كل ذلك أنتج شعوراً خاصاً وإحساساً داخلياً لدى " ابن زريق " أبرز مظاهره هو الحنين والشوق ولوعة الفراق وألم الغربة والندم على ضياع الفرصة والضيق بالهم وثقل الخطوب، يقول :

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[2]

(١) محمد مندور : الأدب ومذاهبه ص٢ ، مكتبة النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

وأما ألم الغربة وقلة الصبر على الفراق فيبدو واضحاً في قوله :

لا أكـذب الله ثـوب العـذر منخـرق عنـي بفرقتـه لكـن أرقعـه[1]

وأما الحنين إلي مرابع الصبا ومراتع الحب وأماكن اللقاء فتبدو في قوله:

بـالله يـا منـزل القصـف الـذي درست آثـاره وعفـت مـذ بنـت أربعـه

هـل الزمـان معيـد فيـك لـذتنا أم الليـالي التـي أمضـته ترجعـه[2]

وأما الندم والحسرة فتبدوان في لومه لنفسه حين يقول :

كـم قائـل لـي ذقـت البـين قلـت لـه الـذنب والله ذنبـي لسـت أدفعـه[3]

على أن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس لم تكن العامل الوحيد الذي شكل تجربة " ابن زريق " فقد كان للعقيدة وتجارب الحياة وخبرات الزمن أثر في ظهور عدد من الرؤى والأفكار التي تتصل بالكون والناس والحياة ، وهو ما كان بدوره سبباً في ظهور ما يعرف بالتجربة الإنسانية في القصيدة ، ففيها تتسع رؤية الشاعر فتتعدى حدود الذات لترتاد آفاقاً أرحب ، ومن ثم يناقش قضايا إنسانية تكونت رؤيته لها من خلال خبرات وتجارب اكتسبها في حياته ، فها هو ذا يناقش قضية الرزق من حيث طرق الحصول عليه، فهو في رأيه مقسوم ومقدر فمهما فعل الإنسان فلن يستطيع الحصول على غير ما كتب له ، ولدى الشاعر عقيدة راسخة

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧.

(٢) نفسه ص٧٨ .

(٣) نفسه .

بأن الرزق موزع بين الناس ، وأن الله لم يضيع خلقه فلكل إنسان رزقه المقدر له ؛ لذلك لا يجب على الإنسان أن يصارع من أجل الرزق أو يحرص عليه حرصاً ربما يكون سبباً في هلاكه .

وإلى جانب قضية الرزق يناقش أحوال الدهر وعلاقته بالإنسان كما يناقش الصبر على الغربة وفراق الأحبة، فيبدي في ذلك آراء ربما تكون مفيدة لمن في مثل موقفه.

لأصـــــبرن لـــــدهر لا يمتعنـــــي بـــه ولا بـــي فـــي حـــال يمتعـــه

علمـــا بـــأن اصـــطباري معقـــب فرجـــا فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه[1]

وبناءً على ما سبق يمكن القول : إن التجربة في هذه القصيدة هي تجربة شخصية ذاتية تولدت عنها تجربة إنسانية ، وقد كان للمشاعر الخاصة والعقيدة وتجارب الحياة وخبرات الزمن أكبر الأثر في تشكيلها .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

الفصل الثاني
البناء اللغوي في عينية ابن زريق

يعتمد المبدع على اللغة في نقل تجربته إلى المتلقي ، ومن ثم يمنحها جل عنايته ومزيد اهتمامه ؛ إذ بواسطتها يمكنه التعبير عن تجربته وتوصيلها إلى الآخرين ، ذلك أن الوظيفة الرئيسة للغة هي السماح لكل إنسان أن يوصل لنظائره تجربته الشخصية [١]، هذا فيما يتصل بالبشر بعامة ، وأما المبدع أو الأديب فإن اللغة تمثل له خطوة في سبيل الكشف عن النفس وعن الكون أيضاً ، وإذاً فالشاعر الذي يمتلك ناصية اللغة وكفاءة الإبداع يمكنه توصيل ما يشاء من معانٍ إلى المتلقي[٢] .

فاللغة هي الوعاء الناقل للتجربة والوسيلة لحملها من داخل المبدع إلى متلقيه فالتجربة "تبقى في مرحلتها الشعورية ، فلا تعد عملاً أدبياً له وجود خارجي إلا حين تأخذ شكلها الصوري (اللفظي) ومن خلال هذا الشكل يتسنى لمتذوقي التجربة أن يدركوها ، وتتهيأ أذهانهم لاستقبالها ، ويتعاطفوا معها ، ويستثاروا إليها وإلى أمثالها . فاللغة هي الوسيلة إلى إبراز المعاني القائمة في نفس الشاعر من ناحية وأداة التأثير والاستثارة من ناحية آخري"[٣].

---

(١) انظر : جون كوين ، اللغة العليا، ص٣٧ ترجمة د/ أحمد درويش ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م.

(٢) انظر: فوزي خضر ، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون ، ص١٨٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م ، كتابات نقدية عدد (١٤٧) .

(٣) د/محمد السعدي فرهود: قضايا النقد الأدبي الحديث ص٩٣، دار الطباعة المحمدية، ط٢، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

ونطالع قصيدة " ابن زريق " فنرى التفاعل بين اللغة والتجربة حيث شكلت اللغة وعاءً نقل من خلاله الشاعر تجربته ، وأمكنه بواسطتها حمل تلك التجربة بما تتضمنه من مشاعر وأحاسيس إلى متلقيه ، وبعث تلك المشاعر وهذه الأحاسيس في نفس ذلك المتلقي ، وإذا كان للغة دورها في نقل التجربة ؛ فإن صدق الشاعر في تجربته قد كان له دور في اختيار لغة خاصة وأساليب معينة تناسب تلك التجربة .

ونقرأ عن سبب القصيدة وباعث الشاعر على إبداعها في كتب التاريخ والأدب، فنراها تكاد تجمع على أنها كانت نتيجة سفر طويل لطلب رزق لم يحصل عليه ، ومن ثم كانت حسرة الشاعر وتألمه للغربة ، وورود الذكريات على مخيلته ، وهو ما يشير إلى معاناة الشاعر وصدق تجربته خاصة إذا علمنا أن المصادر قد أجمعت على أن القصيدة قد قيلت قبيل وفاته ووجدت تحت وسادته .

وبناءً على هذا: فقد كانت التجربة عملاً شعورياً كامناً في نفس الشاعر ، ولم يظهر ذلك العمل إلا حين لبس ثوب اللغة ، ومن ثم أمكننا إدراكها والوقوف على صدقها ، فكان تعاطفنا مع الشاعر وتفاعلنا معه وانفعالنا بتجربته . ونقرأ قصيدة " ابن زريق " فنجد الشاعر قد توافرت له الموهبة والقدرة على جعل ألفاظ معينة في تراكيب بعينها بحيث توحي بمعاني تكشف عن عاطفة خاصة تأسر المتلقي ، ومن ثم يكون تجاوبه مع تلك العاطفة وتأثره بها . انظر إليه يقول في موقف الوداع للحبيبة :

وكم تشفع في أن لا أفارقه ... وللضرورة حال لا تشفعه

وكم تشبث في خوف الفراق ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه[1]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

إن الموقف حزين باكٍ والمشاعر ملتهبة والعاطفة مهتاجة ، فكيف صور ذلك الموقف عن طريق اللغة ؛ إن أول ما يلقانا من لغة الشاعر المصورة هو استخدامه للفظة " كم " التي تفيد التكثير وتكرار الفعل " وكم تشفع في " ،" وكم تشبث " وكأن الحبيبة تشفعت لديه مرة بعد مرة وتشبثت وتمسكت به مرات متعددة مما يفيد لهفتها عليه وحرصها الشديد على بقائه .

ثم انظر إلى اللفظين " تشفع " و" تشبثت " وصياغتهما الصرفية فهما على وزن " تفعل" –بتضعيف العين–الذي يفيد التكرار والقيام بالفعل في شدة وقوة، ويزداد التصوير روعة حين يستخدم الشاعر تركيباً يوحي لا بتفاعل الحبيبين وحسب ، بل بالتواصل بين أدمعهما وذلك حين يقول : "وأدمعي مستهلات وأدمعه" وكأن تساقط الدموع قد كان في وقت واحد وبدرجة واحدة ، ما يشير إلى شدة الوصل بين الحبيبين ثم إن الدموع مستهلات ما يشير إلى تفجرها ساعة الوداع في سيولة وكثرة .

وفي قصيدة " ابن زريق " يلتقي اللفظ مع الموقف الشعري ومن ثم يعبر عن الحالة النفسية للشاعر ، وهنا يتحقق الربط بين اللفظ والمضمون أو المعنى المراد توصيله ، وتلك هي المهمة الأولى المنوطة باللغة ، وهي التعبير عن التجربة وصياغتها في شكل فني مناسب ففي معرض الحنين إلى الوطن والحبيبة يتذكر الشاعر منزله الذي عاش فيه، وتمتع بالحياة في ربوعه ولا سبيل أمامه للرجوع إليه، ومن ثم لا يملك إلا الدعاء له، ولمن يسكنه بالسقيا.

بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه

فـي ذمـة الله مـن أصـبحت منزلـه وجـاد غيثـا علـى يمنـاك يمرعـه[1]

يستخدم الشاعر القسم والنداء في مطلع حديثه عن المنزل وكأنه يستنطقه بل يستعطفه، ويتمنى لو أن المنزل يجيبه بأن الزمان سيعيد إليه لذته وعيشه السعيد فيه ، وأنى له ذلك، وهو ما يشير إلى حالة من الشوق والحنين تبرزها تلك الألفاظ " بالله " ، " يا منزل العيش "، " درست " ، " عفت " وغيرها .

ثم إن استخدامه للفظ " درست " ، و " عفت " يشير إلى بعد ذلك الأمل وعدم تحققه؛ إذ هي ألفاظ تفيد وقوع الفعل وعدم الأمل في رجوعه ، ثم انظر إلى الاستفهام في قوله " هل الزمان " وهو ما يشير إلى حيرته وشكه في وقوع ذلك الفعل، وخصوصاً أنه لا يعلم أن الزمان هو الذي سيعيد هذه اللذة أم الليالي ، إنه تردد مفاده عدم وقوع الفعل وهو مع ذلك لديه أمل وإن كان بعيداً ، غير أن إيمانه ببعد هذا الأمل لا ينفي حبه لهذا المكان؛ لذلك يجعله في ذمة الله ، وهو تعبير يشير إلى بعد الشقة وعظم الفراق وبعد الأمل في الرجوع إليه ، ثم انظر إلى استخدامه للفظ " مغناك " وهي الأرض التي تنبت ، ولفظ " يمرعه " ما يفيد أن الشاعر يحب لهذا المكان أن يكون دائماً الإنبات والنمو والاخضرار .

ويعيش الشاعر حالة القلق والاضطراب، فيفصح لفظه عن التجربة وتعبر لغته عن الحالة المسيطرة على نفسه ، فها هو ذا يقول معبراً عن قلقه وعدم استقراره :

قـد كـان مضـطلعاً بالخطـب يحملـه فضـلعت بخطـوب البـين أضـلعه

يكفيـك مـن روعـة التفنيـد أن لـه مـن النـوى كـل يـوم مـا يروعـه

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

ما آب من سفر إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالرغم يجمعه
تأبى المطالب إلا أن تجشمه للرزق كدحا وكم ممن يودعه
كأنما هو من حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه
إذا الزمان أراه في الرحيل غنىً ولو إلى السند أضحى وهو مربعه

إن الموقف موقف قلق وخوف وعدم استقرار، ومن ثم جاءت لغة الشاعر متطابقة مع هذا الموقف متواكبه مع تلك الحالة ومعبرة عن الجو المحيط بالشاعر وهو ما ندركه من خلال ألفاظ مثل " ضلعت ، خطوب ، النوى ، أزعجه ، في حل ومرتحل ، يذرعه " وكلها كلمات وتراكيب تعبر عن حالة القلق والخوف ، وأي تعبير أصدق من قوله " أزعجه " الذي تشعر معه بحالة الخوف المتصل ، ثم انظر إلى التركيب في قوله " ضلعت بخطوب البين أضلعه " تراه يشير إلى حالة الضيق حين استخدم الفعل مبنياً للمجهول ، ثم استخدم لفظة " خطوب " بالجمع تعبيراً عن عدم الثبات والاستقرار والارتحال الدائم ، فلا تجد تعبيراً أصدق من قوله :

كأنما هو من حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه

فهو في حاله سير متواصل وارتحالٍ دائمٍ ، وكأن هذا قد كتب عليه ووكل به، وهو يذرع الأرض؛ أي: يقطعها شرقاً وغرباً ، ألا ترى أن هذه الألفاظ وتلك التراكيب قد عبرت عن مراد الشاعر وطابقت الحالة والموقف المسيطر على ذهنه ؟

ونلاحظ أن الشاعر قد استعمل الجملة الفعلية في أكثر أبيات القصيدة بل إنه قد استهل بها هذا النص إذ قال في مفتتحه :

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه قـد قلـت حقـا ولكـن لـيس يسمعـه[1]

وتتوالى الأبيات مفتتحةً بأفعال في أزمنةٍ مختلفةٍ ، وهذا يشير إلى معايشته للحركة والزمان حيث الفعل حركة في الزمان الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، وهو ما يمكن إدراكه في وضوح ؛ فالزمان له دوره المؤثر في حياة " ابن زريق " وقد تحدث عنه كثيراً معبراً عنه بألفاظ مختلفة ، فرأينا لفظة " الزمان الأيام ، الدهر " وكلها أدوات مؤثرة في صنع أفعال لها دورها في تشكيل النص المبدع . على أننا نلاحظ أن الشاعر يستخدم الفعل في الزمن الماضي وفي المستقبل بنسب متقاربة ، فهو حين تتوارد عليه الذكريات ويعود بفكره إلى الوراء يستعمل الأفعال الماضية ، ولعله بذلك يرى أن الزمن المحبب إليه هو ما فات وليس ما سيجيئ ، ثم هو يستخدم الأفعال المضارعة غالباً عندما تتوفر لديه القدرة على المقاومة ، فترى عنده أفعال من مثل " لأقطع أيامي وأنفدها ، لأصبرن لدهر ، ستجمعنا يوماً وتجمعه ... " على أن الأفعال التي استخدمها " ابن زريق " جاءت مبنيةً للمعلوم فلم نر الفعل المبني للمجهول في النص إلا نادراً بل لا يكاد يتعدى أصابع اليد الواحدة ، وهذا ما يشير إلي علمه بأسباب معاناته ومعرفته ببواعث قلقه وخوفه ، ثم إن الفعل بصيغة الطلب لم نر له ظلالاً في تلك القصيدة مما يؤكد قناعة الشاعر ورضاه بما قسم له ، وثقته بقضاء ربه ، وليس أدل على ذلك من قوله في نهاية القصيدة :

وإن تغـــل أحـــداً منـــا منيتـــه فما الذي في قضاء الله يصنعه ؟[2]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

البناء الأسلوبي:

لكل كاتب خصائصه الأسلوبية التي تميزه عن غيره، وهذه الخصائص هي التي تجعل من إبداعه إبداعاً مختلفاً عن إبداع غيره من الكتاب، فقدرة الكاتب أو الأديب تبدو في اختياره للأسلوب الذي يستخدمه في نتاجه الأدبي، وهنا يكمن دور دارس هذا النتاج المتمثل في محاولة الوقوف على سر اختيار الأديب لذلك الأسلوب دون غيره ، والتعرف على طبيعته ووظيفته .

ونطالع قصيدة " ابن زريق " فنقف على عدد من الخصائص الأسلوبية التي تميز هذا النص وتبرز موهبة مبدعه، ولعل أول ما يلقانا من هذه الخصائص هو اختياره للضمائر.

فنلاحظ أن الشاعر: قد اختار ضمير الغيبة للتعبير عن نفسه، كما نلاحظ أن اختياره لهذا الضمير قد جاء في معرض حواره مع زوجته ولومها له على سفره ومحاولته تبرير هذا السفر الدائم، ولعل سبب اختياره لهذا الضمير في هذا الموقف يكمن في أن القضية التي يعالجها في مطلع القصيدة هي قضية غربة وغياب ، فكان من المناسب في التعبير عن ذاته استخدام هذا الضمير، وربما يكون الشاعر قد قصد استعطاف الزوجة واستمالتها نحوه بوصفه غريباً غائباً دائم الترحال، وقد يكون لاستعمال هذا الضمير سبب ثالث: يكمن في منح الشاعر قدراً من الحرية في الحديث عن نفسه والإفصاح عن ذاته دون اللجوء إلى المواجهة والدخول في حالة من التحدي مع المخاطب ؛ يؤيد ذلك أن استخدامه لهذا الضمير قد جاء في مطلع القصيدة وفي موقف الحديث مع الزوجة كما أسلفنا فنراه يقول مثلاً : " لا تعذليه ، يولعه ، يسمعه ، ينفعه ، تأنيبه ، موجعه ... الخ " .

أما حين يتحدث عن نفسه ولنفسه فنراه يستخدم ضمير المتكلم فيقول : في آخر القصيدة مثلاً "لأصبرن لدهر ، يمتعني ، اصطباري ... الخ" ، واختياره لهذا الضمير إنما جاء لأنه كان في موقف الإفضاء إلى النفس فهو بذلك لديه قدر من الحرية في التعبير عن الذات ، وهو ما يناسبه هذا الضمير .

ويرتبط بذلك استخدامه لأسلوب التذكير في التعبير عن المؤنث فهو يعبر عن الحبيبة بتلك الطريقة وذلك الأسلوب ، انظر إليه يقول في موقف الفراق :

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي أن يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه[1]

وتراه بعد ذلك يعبر عن تشفع الحبيبة له وتشبثها به " وكم تشفع في ، وكم تشبث في " ولعل استخدامه لهذا الأسلوب، إنما كان غيرة على المحبوب ورغبته في عدم التصريح باسمها أو الاشارة إليها ، وربما كان ذلك صوناً لتلك المحبوبة ورغبة في السمو بها وإبعادها عن ألسنة الناس .

ومن الخصائص التي امتاز بها "ابن زريق" وميزت قصيدته هي اختيار اللفظ ومناسبته للمعنى ومواءمته للموقف، وهي خاصية تميز شاعراً عن شاعرٍ، وتبرز قدرة الأديب على الخلق والإبداع ، وهذه الخاصية الأسلوبية تبدو واضحة في القصيدة التي نحن بصدد دراستها، ولسنا نبغي الوقوف عند كل لفظةٍ، ودراسة مطابقتها للمعنى ، فهذا يحتاج إلى صفحاتٍ طوال، ولعل فيما نختاره من نماذج يصلح برهاناً على تلك الظاهرة ، ومن نأخذ مثلاً :

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

يكفيك من روعة التفنيد أن له من النوى كل يوم ما يروعه[1]

إن له من الحزن ما يكفيه فهو لا يحتاج إلى التأنيب إن ألم الفرقة والتشتت لا يكاد يفارقه ، فما إن يستقر حتى يرحل؛ لذلك هو خائف مرتاع ، وهنا يختار الشاعر كلمات من مثل: " التفنيد ، النوى ، يروعه " فانظر إلى دقة تلك الكلمات إنها تحمل من الشدة والقوة التي تنتابه، وفي معرض التعبير عن حالة الشك والتوجس والفزع تراه يستخدم كلمات من مثل: " ريب ، جازعاً ، فرقاً " وذلك في قوله :

فكنت من ريب دهري جازعاً فرقاً فلم أوق الذي قد كنت أجزعه[2]

فـ " الريب " تعبير عن الشك الدائم والمتصل ، وكلمة " جازعاً " تشير إلى حالة الفزع والخوف والرغبة في الخلوص من ذلك الموقف ، ثم تأتي كلمة " فرقاً " لتعطيك صورةً صادقةً للإنسان القلق المتململ الذي لا يثبت على حال ، وبذلك تكون تلك الكلمات قد تعاونت على تصوير هذا الموقف أتم تصوير .

وثم أنموذج ثالث يبرز قدرة الشاعر على اختيار اللفظ نراه في آخر القصيدة ، وذلك حين يقول :

وإن تغل أحداً منا منيته فما الذي في قضاء الله يصنعه[3]

إنه يخشي الموت المفاجئ الذي قد يأخذه دون رأفةٍ به أو شفقةٍ عليه ؛ لذلك رأى المنية غولاً ينقض عليه ويلتهمه ، وليس أصدق في التعبير عن تلك

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .
(٢) نفسه ص٧٨ .
(٣) نفسه ص٧٨ .

الحالة من قوله " تغل أحداً منا منيته " ، وهو بذلك يصور شدة الموت والمفاجأة وعدم القدرة على الفكاك منه .

ويسترعي النظر في تلك القصيدة سهولة التعبير ، وهي من الخصائص الأسلوبية التي تميز بها " ابن زريق " ، فها هو ذا يقول مثلاً :

وما مجاهدة الإنسان واصلةً رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه

قد وزع الله بين الناس رزقهم لم يخلق الله من خلق يضيعه[1]

فانظر إلى قوله: " مجاهدة الإنسان واصلةً رزقاً " وقوله : " قد وزع الله بين الناس رزقهم " وقوله: " لم يخلق الله من خلق يضيعه " ترى كلاماً عادياً سهلاً ولغة متداولة في حياتنا اليومية قديمها وحديثها، وهي مع ذلك ذات صبغة فنية تجعل متذوق الأدب يطرب لها ويهش لسماعها ، وما ذلك إلا لأن صاحبها ذو قدرة على وضعها في تركيب مثير معجب وصياغة فنية آثرة مبعثها رنيين موسيقي آخاذ ولغة سهلة معبرة ، وذلك على الرغم من أنها تكاد تخلو من التصوير الفني والبلاغة ، على أن الصدق والتلقائية وعدم التكلف في لغة هذه القصيدة يلفت النظر" ويجعل المعنى – الذي يقصده الشاعر – يلج إلى القلوب بيسر ، ليهز العواطف هزاً عنيفاً ، تجعل المتلقي يتعاطف مع الشاعر بكل كيانه"[2] .

وهذه اللغة السهلة مما يؤثر القلوب و يجذب النفوس إلى جانب الشاعر ومن ثم نتفاعل معه فنعيش قضيته ونشاركه معاناته .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) د فوزي خضر : عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون ، ص١١٠ .

ومن الخصائص التي تميز أسلوب "ابن زريق" استخدامه للأسلوب الخبري لأغراض متعددة .

ومعلوم أن الخبر هو الذي يحتمل الصدق والكذب وله غرضان رئيسان : فالأول : هو إفادة الحكم أو ما يسميه أصحاب البلاغة بالفائدة ، والثاني : هو ما يطلق عليه لازم الفائدة، وفي إطاره تتعدد الأغراض التي يرمي إليها الشاعر من خلال أساليبه الخبرية التي يسوقها، ومن تلك الأساليب ما جاء في قوله: " جاوزت في لومه حد المضر به " ، وهو خبر غرضه إفادة الحكم وإعلام السامع بمعاناته .

وفي قوله: " فهو مضني القلب موجعه " وهو أسلوب خبري غرضه إبراز ما يعتري قلب الشاعر من ألم وأوجاع . وفي قوله : " ما آب من سفر إلا وأزعجه " أسلوب يعبر عن القلق وعدم الاستقرار .

وفي قوله : " فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه " أسلوب أقرب ما يكون إلى الحكمة، ومفاده: بعث الأمل في النفس وترقب الفرج ، ويستخدم الشاعر " كم " الخبرية التي تفيد التكثير وتكرار الفعل ؛ وذلك لأغراض متعددة لكنها تدور في فلك معنى واحد، وهو التعبير عن الضيق والخوف والقلق ، فها هو ذا يقول: " وكم تشفع في ألا أفارقه " ويقول : " وكم تشبث في خوف الفراق " وهو أسلوب يفيد تكرار التشفع والتشبث من الحبيبة إعلاناً عن ضيقها لسفره وإصرارها على بقائه معها.

كم قائل لي ذقت البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه[1]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

يريد أن يعبر عن تعدد لائميه على سفره الدائم وترحاله المستمر، وهو أسلوب يعبر من خلاله عن ندمه وحسرته ولومه لنفسه . وفي موضع آخر يقول :

تـــأبى المطالـــب إلا أن تجشـــمه للـرزق كـدحا وكـم ممـن يودعـه[1]

يعبر عن كثرة سفره وهو ما يستلزم كثرة فراقه لمحبيه ، وربما يصلح تعبيراً عن كثرة محبيه وحسرته لفراقهم .

وتتعدد الأساليب الإنشائية في قصيدة " ابن زريق " وتتنوع صورها وتختلف أغراضها ما يجعلها تشكل خاصية أسلوبية في إبداع الرجل. والأسلوب الإنشائي هو الذي لا يحتمل الصدق والكذب[2] ، وهو ينقسم قسمين : إنشاء طلبي وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، وغير طلبي وهو مالا يستدعي مطلوباً .

فالإنشاء الطلبي يمنح الشعر حيويةً وإثارةً ؛ ذلك أنه يسهم في جذب المتلقي بتعدد صوره وتنوع أغراضه التي تختلف ما بين النهي والأمر والقسم والاستفهام والنداء والدعاء والرجاء وغيرها .

إن أول ما يلقانا من صور الإنشاء الطلبي في قصيدة " ابن زريق " هو النهي : وهو أسلوب يستخدمه صاحبه عندما يضيق بأمر معين ، ومن ثم يعلن عن رفضه له ورغبته في عدم حصوله ، وهو ما فعله الشاعر في الإعلان عن ألمه بسبب لوم الحبيبة له ، ومن ثم توجه إليها بهذا النهي فقال :

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه قـد قلـت حقـا ولكـن لـيس يسمعـه[3]

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) بسيوني عبد الفتاح فيود : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ص٣٥١ ط٣ ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م ، مؤسسة المختار للنشر .

(٣) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

إنه يتفهم لومها له ومع هذا فإنه يضيق بهذا اللوم ، وما ذلك إلا لأنه يثير في نفسه ألما وأوجاعاً ، ولعل أهم ما يؤكد ضيق الرجل بهذا اللوم هو أنه قد بدأ قصيدته بهذا الأسلوب، وهو ما يشعرنا بأن نفس الشاعر قد تحملت كثيراً من هذا اللوم حتى انفجرت بهذه الصورة المتمثلة في أسلوب النهي ، ويبدو أن الشاعر لم يجد استجابة من الزوجة لذا خفف من طلبه فاستعمل أسلوب الأمر بوصفه صورة أخرى من صور الطلب فقال

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عسفه فهو مضني القلب موجعه[1]

كأنه يقول : إذا لم يمكنك ترك لومي فافعلي ، ولكن في رفق وشفقة يبرر ذلك بأن هذا العزل يسبب له ألما يصعب عليه حمله ، ويستنطق الشاعر منزله القديم الذي كم عاش فيه وسعد بلقاء حبيبته في أكنافه ، فيسأل ذلك المنزل هل تعود تلك الأيام وهل يسعدني الزمان بلحظات لذه ومتعة كتلك التي عشتها ؟ يرغب في إجابة المنزل فيقسم عليه مع أنه يعلم أن ذلك من قبيل المستحيل ، بدا ذلك في استخدام حرف النداء " يا " المشار به للبعيد يقول :

بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه[2]

وهنا يقترن الاستفهام بالقسم ، وهو استفهام يخرج من الحقيقة إلى المجاز، فأنت تشعر في قوله : " هل الزمان معيد فيك لذتنا " بالتمني والرغبة في حصول هذا الأمر المستبعد، وبذلك يكون الشاعر قد استعمل هذه الصورة من

(١) نفسه ص ٧٧ .

(٢) نفسه ، ص٧٨ .

الإنشاء الطلبي في غير حقيقتها ، وذلك لغرض أراده وأمر تمناه ، ولتكتمل الصورة المعبرة عن نفس الشاعر وما يعتمل فيها يستخدم النداء معضداً للقسم والاستفهام ، ألا تراه ينادي المنزل فيقول " بالله يا منزل القصف " إن النداء مرادف لحالة الفقد والضياع ، ومن ثم فهو يحاول استحضار هذا المفتقد(المنزل) لذلك تراه يستخدم حرف النداء " يا " تعبيراً عن أنه ينادي بعيداً لا يأمل في حصوله ، ويأتي الدعاء بوصفه صورة من صور الطلب يستخدمه الشاعر تعبيراً عن حبه لمكان عيشه الذي تركه ، وفي هذا الدعاء تشعر بأن " ابن زريق " يحاول التخفيف عن نفسه والإعلام عن نقاء سريرته وحبه للناس جميعاً حتى من سيسكن هذا المنزل من بعده يقول :

في ذمة الله من أصبحت منزله وجاد غيثاً على يمناك يمرعه[1]

إن عودته من سفره ولقائه بمحبوبه هو أمر ليس مستبعداً؛ لذلك استخدام أسلوب الرجاء أما حين تمنى أمراً يستحيل حدوثه وهو رجوع الزمان فقد استخدم أسلوب التمني الوارد في صورة الاستفهام، وقد أحسن الشاعر حين أتى بأسلوب الرجاء قرب نهاية القصيدة، وكأنه يقول : إنه على الرغم مما مر بي فإنني ما زلت متمسكاً بحبي مرتبطاً بعاطفتي التي لا تفتر مهما مر بي من أحداث .

مما تقدم يمكن القول : إن لغة الشاعر فصيحةٌ ، تخلو من الخطأ النحوي إلا في القليل النادر ، وهي لغةٌ وسيطةٌ لا يبدو على صاحبها تكلف أو تقعر فلا يعود بها إلى لغة العرب القدماء ولا يهبط بها إلى مستوى لغة العامة والسوقة بحيث تصبح ركيكة مبتذلة ، وبذلك يمكن القول : إن " ابن زريق " قد منح عنايته

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

للَّفظ ووقف عنده طويلاً يؤثر لفظةً على لفظةٍ ، ويفضل عبارةً على أخرى فينفذ من خلال ذلك إلى تجربته ويصور الموقف كما أراد له أن يكون .

الفصل الثالث

الوحدة الفنية في القصيدة

تتكون القصيدة – التي نحن بصدد دراستها – من عدة أجزاء يتصل بعضها ببعض فهي متلاحمة متماسكة يسلم كل جزء منها إلى الآخر ، وهي بذلك تحقق الوحدة الفنية كما يراها بعض المحدثين؛ إذ يقولون :

" وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والافكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلي خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر "[1] .

ونقف مع القصيدة فنراها تدور حول موضوع واحد وهو الغربة وما يترتب عليها من آثار في نفس الشاعر، والتي تتمثل في عدد من الذكريات تثيرها الرحلة ، ومن ثم تتولد في نفسه مجموعة من المشاعر قوامها الندم والحسرة والخوف والقلق والتوجس ، يعبر الشاعر عن كل إحساس منها في جزء معين من القصيدة غير أنه يربط بين هذه الأجزاء فتبدو القصيدة وكأنها وحدة واحدة أو كل متكامل يفضي بعضه إلى بعض ، وقد استطاع الشاعر ترتيب صوره وأفكاره ترتيباً تقدمت به القصيدة شيئاً فشيئاً حتى انتهت إلى خاتمة استلزمها ترتيب الأفكار والصور .

(١) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص٣٧٣، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

يبدأ الشاعر قصيدته بحديث إلى زوجه التي تلومه على سفره فيطلب منها ألا تلومه أو على الأقل أن تخفف من ذلك اللوم، مبيناً أنه يعلم أنها تقول الحقيقة ولكنه لا يمكنه الاستماع إليها فقد جاوزت الحد في ذلك اللوم دون أن تدري، ويعلل ضيقه بهذا العتاب بأنه مضني القلب موجعه، وأنه قد تحمل من الهموم أثقلها حتى كثرت وجاوزت الحد، فأصبحت تضيق بها نفسه ثم إن سفره الدائم يسبب له الخوف والقلق لفرقته أحبابه، وهذا فيه الكفاية عن التأنيب إنه رحالة لا يقر له قرار يقطع الأرض طولاً وعرضاً وكأنه موكل برعايتها ، ومن ثم لا يكاد يسمع عن مكان فيه رفده ، حتى يرحل إليه مهما كان بعده أو طول السفر إليه، وهنا ينتهي الجزء الأول وأنت تراه متماسكاً متصلاً تأخذ أبياته بعضها بعناق بعض في تسلسل منطقي يرتبط فيه السبب بالمسبب والعلة بالمعلول.

وينتقل الشاعر إلى الجزء الثاني في القصيدة ، وهو عبارة عن مجموعة من الحكم قد تبدو غريبة بين الجزء السابق عليها والجزء الذي يليها ، غير أن المتمعن في هذه الأبيات التي تمثل الجزء الثاني والتي جاءت في شكل حكم متناثرة يجد أنها جاءت نتيجة طبيعية لما بدا في الجزء الأول من خبرات وتجارب اكتسبها " ابن زريق " من أسفاره ، وإذا نظرنا إلى القصيدة بوصفها مجموعة من الذكريات وكان الجزء الأول هو بعض هذه الذكريات أمكن القول : إن ما جاء في الجزء الثاني يعد ندماً وتحسراً على ما فقده الشاعر، ثم إنه لم يحصل نتيجة مرضية له تساوي ما فقده من أحبة وما تركه من منازل وما عاشه من قلق وخوف وتوجس، كأنه يقول: قد كنت في سفر دائم وترحال مستمر أفقدني كل شيء مع إنني الآن أصبحت أدرك أن الرزق ليس يحصل بكثرة السعي ولا يقل بتركه ؛ ذلك أن الرزق موزع ومكتوب من الله الذي لم يخلق خلقاً لم يكتب له رزقاً فيضيع ويهلك ، ولذلك فإن الحرص على جمع المال يعد بغياً وهذا البغي قد يكون فيه مصرع الإنسان ؛ لذلك عليه أن

يتوكل على الله ويعتمد عليه في كل شيء فربما يأتيه رزقه من مكان لا يتصور مجيؤه منه، وربما يسعى إليه في مكان يتوقعه فيه ثم لا يجده.

وإلى هنا ينتهي الجزء الثاني من القصيدة ليعود الشاعر إلى ذكرياته حيث ودع الحبيبة التي تشفعت لديه في ألا يسافر وتشبثت به وقت الرحيل آملة في بقائه معها ، فلما يئست تساقطت دموعها في حين تساقط دمع الشاعر انفعالاً بالموقف وتفاعلاً مع المشاعر المتدفقة المهتاجة ، إنه يحاول كتمان مشاعره التي لا يمكنه كتمانها ، إنه يعترف بجنايته عليها حين فارقها غير أن الجرم الذي ارتكبه في حقها لا ينفع معه عذر أو تبرير ، وهنا ينتهي الجزء الثالث من القصيدة ويبدو أن الشاعر كلما تذكر موقفاً أعقبه بمجموعة من الحكم تتولد من هذا الموقف ، وتلخص أثر ذلك الموقف في نفس الشاعر .

ومن ثم تأتي هذه الحكم غير قلقة في مكانها أو نابية عن سياقها ، إذ هي مجرد تعقيب على الموقف أو الذكرى السابقة عليها ، وفيها تلمس مشاعر الشاعر واضحة قوية مع أنها تأتي في شكل حكم ومواعظ . ولسنا نقول : بالترابط الكامل بين كل جزء وما يتلوه ، غير أننا نجد من الروابط ما يجعلها على حال من التواصل والتلاحم ، وعلى كل حال سرد الشاعر ذكريات وداعه للمحبوبة وأثر ذلك عليه ، ثم انطلق إلى الجزء الرابع ، وفيه يستفيق الشاعر من خيالاته ويعود من ذكرياته إلى حقيقة صادمة مفادها فقد الحبيبة وضياع أيامه السعيدة معها، ومن ثم يبدي ندمه وحسرته على ذلك كله فيلوم نفسه ، إنه لم يحافظ على ذلك الملك الذي لم يكن سوى حب عاشه وماضٍ سعيد قضاه ، لقد كان في نعيم تقلب فيه لم يشكر الله عليه ، ومن ثم كان انتزاعه منه:

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا شكر عليه فإن الله ينزعه[1]

غير أن الشاعر لم يستسلم لألمه فيحاول المقاومة التي تبدو عنده في أشكال مختلفة، وهنا يأتي الجزء الخامس من النص ، وفي مطلعه تتمثل المقاومة في كؤوس الصبر التي يتجرعها محاولاً تعويض ما فقده يقول:

اعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأساً تجرع منها ما أجرعه[2]

ثم هو بعد ذلك يلقى اللوم على نفسه ، فالذنب ذنبه ذلك أنه لم يقبل النصيحة .

كم قائل لي ذقت البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه[3]

وواضح أن الصبر لم يكن علاجاً ناجعاً له، ومن ثم عاد إلى عرض حاله وما يعتريه من ألم فهو يقضي أيامه في حسرة ، وأما لياليه فإنه يمضيها قلقاً غير مطمئن ولا مستريح، وكذلك حال الحبيبة التي تشعر به وتتفاعل معه ، لقد فاجأني الدهر وأخذني على حين غرة، فما كنت أتوقع منه ذلك حتى وقع منه ما وقع .

إني لأقطع أيامي وأنفدها بحسرة منه في قلبي تقطعه

بمن إذا هجع النوام بت له بلوعة منه ليلي لست أهجعه

لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا لا يطمئن له مذ بنت مضجعه

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(٢) نفسه ص ٧٨ .

(٣) نفسه ص ٧٨.

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيد عسراء تمنعني حظي وتمنعه[1]

ويضيق الشاعر بالألم فيحاول التخفف منه عن طريق التمني والرجاء والدعاء لمنزل العيش الذي عاش في كنفه ونعم فيه بلقاء الحبيبة

بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه[2]

لكن الشاعر يهتدي إلى الحل الناجع في رأيه ، إنه الصبر فربما يكون فيه الفرج وربما تأتي الليالي بما نتمنى فيكون اجتماعنا ، وإلا فليس أمامنا إلا التسليم بقضاء الله .

لأصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعنا يوما وتجمعه
وإن تغل أحدا منا منيته فما الذي في قضاء الله يصنعه[3]

وإذاً فالقصيدة تحكي حالة غريب فقد حبيبه ، فهو يسترجع ذكرياته معه وما يترتب على هذه الذكريات من ألم شديد حاول مقاومته حتى ينتهي في آخر

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .
(٢) نفسه ص ٧٨.
(٣) نفسه ص ٧٨ .

المطاف إلى حل يمثل الخاتمة الطبيعية لقصيدة اتصلت أجزاؤها بخيط رفيع يتمثل في مشاعر أليمة وأحاسيس ممضة جراء الغربة وفقد المحبوبة ، وثم خيط آخر يبدو في القصيدة وهو ذلك التفاعل والمشاركة الوجدانية بين الشاعر وحبيبته فرأيناها تقلق لقلقه وتتألم لألمه وتشعر بمشاعره

مما تقدم يمكن القول : إن القصيدة قد تحققت لها الوحدة الفنية كما تحقق لها شكل من أشكال الوحدة العضوية كما فهمها المعتدلون من الدعاة إليها ، وأما الوحدة العضوية بشكلها الذي دعى إليه بعض النقاد في مطلع القرن العشرين ومنهم " العقاد " فلا سبيل إلى تحققها في مثل هذا النص ، فهم يرون أن الوحدة العضوية هي أن تكون القصيدة " عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصور بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغني عنه غيره في موضعه ... أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها ولا قوام لفن بغير ذلك " [1]

ولا نظن أن شاعراً يطلق لنفسه العنان في التعبير عن مشاعر تؤرقة وأحاسيس ملتهبة ترهقه يتوقف ليصنع نظاماً هندسياً لقصيدة يعبر فيها عن نفسه، ويتخلص من خلالها من هم ثقيل أقض مضجعه وألهب مشاعره، وهذا ديدن الشعر الغنائي بعامة والشعر العربي بخاصة.

(١) عباس محمود العقاد : إبراهيم عبد القادر المازني : الديوان في الأدب والنقد ، ص١٨٥ ، ١٨٦ ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م .

وواضح أن دعاة هذا الشكل من الوحدة قد تأثروا بما قرأوه عند أرسطو ودعوته إلى الوحدة العضوية في الشعر ، غير أن كثيراً من النقاد يرون أن أرسطو لم يهدف في كتابه إلى أن تكون الوحدة العضوية مما يجب أن يحرص عليه الشعر الغنائي فهو يتحدث في كتابه " الشعر " عن الأنواع التي تعتمد على المحاكاة وهي : الملاحم ، والمآسي والملاهي[١] ؛ ولذلك فإن كثيراً من النقاد ومنهم الدكتور (عبد الرحمن عثمان) يرون أن: " طبيعة الشعر الغنائي في كل جنس أوربياً كان أم عربياً لا يتقيد في بناء القصيدة بالوحدة العضوية، لأنه خارج عن نطاق المحاكاة التي توجب الوحدة بين الأجزاء التي يتألف منها الكل وهو الحدث أو الحكاية والخرافة ؛ ليتحقق بهذا الرباط القوي ما يراد به من الغرض الملحمي أو التمثيلي. وأما الغرض من القصيدة الغنائية فهو الترجمة عما يحس به الشاعر في أعماق نفسه من علاقات شعورية تصله بالآخرين أو إعراب عن رضا أو سخط بما يحيط به سواء أكان مصدر هذين هو المجتمع أم كان ناشئاً من علاقة نفسه بالطبيعة والحياة "[٢].

ولم تكن القصيدة التي نحن بصدد دراستها إلا ترجمة لمشاعر وأحاسيس أحس بها صاحبها في أعماق نفسه فأعلن عنها في هذا الشكل الفني الذي يصله بالمتلقي ، ومع أن القصيدة قد صورت خاطراً أو خواطر متجانسة فلم يكن شاعرنا معنياً بأن يصنع شكلاً هندسياً أو بناءً عضوياً تترابط أجزاؤه في إحكام وتماسك ، ولكنه كان معنياً بأن يعمد إلى مجموعة متشابهة من المشاعر والأحاسيس تنتظم معنى واحداً أو معاني متقاربة ، ومن ثم نظمها في قصيدة واحدة ، وفيها ألف من

(١) د/ عبد الرحمن عثمان : مذاهب النقد وقضاياه ص١٦٠، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية .

(٢) نفسه : ص١٦١ ، ١٦٢ .

جزئيات المعنى الكلي الواحد أو المعاني المتشابهة عملاً فنياً يشد بعضه إلي بعض منطق نفسي شعوري نابع من إحساس الشاعر ومعبر عن شعور غمر نفسه وسيطر على خاطره[1] .

وقد أوضحنا فيما سبق أن قصيدة " ابن زريق " قد كانت صدى لمشاعر وأحاسيس شكلت جزئيات لمعنى كلي هو الغربة وما ترتب عليها من فقد للأحبة وما يتبع ذلك من ألم وندم وقلق دائم وإحساس بالخوف المستمر ، وقد استطاع الشاعر ربط هذه المعاني أو الجزئيات – التي قد تبدو مختلفة – بطرق أشرنا إليها سابقاً .

فإذا نظرنا إلي تجربة الشاعر في هذه القصيدة رأينا أجزاءها وقد جاءت غير متنافرة تعاونت في التعبير عن معاناة الشاعر وتضافرت علي إبراز مراده ، وبذلك تقدمت القصيدة في التصوير شيئاً فشيئاً في حركة نامية متصاعدة وتواصلت أجزاؤها بحيث تنقل الشاعر من فكرة إلى فكرة، ومن صورة إلى صورة في سهولة ويسر ، ومن ثم تشكل من هذه المعاني أو تلك الأفكار كل متماسك قوامه وحدة الموضوع ووحدة الشعور المترتب عليه.

الفصل الرابع

التصوير الفني في عينية ابن زريق

(١) د/ عبد الرحمن عثمان : مذاهب النقد وقضاياه ص١٦٢ .

تمثل الصورة ركناً مهماً من أركان الإبداع الأدبي بعامة والشعري بخاصة ؛ ذلك أنها تملك القدرة على أن تبعث في نفس المتلقي من الإيحاء الذي يمكن المبدع من نقل رؤاه وحمل أفكاره والتحليق بالمتلقي في أجواء تمثل العالم الفني الخاص بذلك المبدع ، ولما كانت الموهبة الفطرية هي المنبع الرئيس للشعر ، وهي كذلك بالنسبة للصورة ، كانت تلك الصورة بمثابة الروح من الجسد بالنسبة للشعر ، وذلك هو سر قدرتها على نقل تجربة الشاعر محاطة بغلالة من الجمال الفني والتعبير في آن على أن قدرة الصورة على التأثير في المتلقي من ناحية ونقل تجربة صاحبها من ناحية أخرى رهن بعلاقتها الوثيقة بالعاطفة ومدى صدق التجربة لدى المبدع غير أن الشاعر الموهوب يمكنه أن يصنع من الصورة وسيلة من وسائله في تحقيق الوحدة الفنية أو العضوية لنصه الشعري وهذا ما يشير إليه كولردج في قوله : " إن الخيال هو القوة التي بواسطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على عدة صور أو أحاسيس في القصيدة ، فيحقق الوحدة فيما بينهما بطريقة أشبه بالصهر" [1] .

ف " كولردج " يستخدم الصورة الشعرية بوصفها مفضيةً إلى الإحساس أو العاطفة ، ومن ثم تشكل في رأيه أساساً للوحدة العضوية في العمل الأدبي ، وهو ما يؤكده قوله : " وإنما تصبح الصور معياراً للعبقرية الأصلية حينما تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الافكار والصور المترابطة أثارتها عاطفة سائدة ، أو

(١) السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية ص٩٢ ، الطبعة الثانية دار المعارف .

حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة والتتالي إلى لحظة واحدة ، أو أخيراً حينما يضفي عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية "[١].

مما سبق يمكن القول : إن قيمة هذا العنصر ووظيفته في العمل الأدبي تكمن في إسهامه في نقل تجربة المبدع ومشاركته في تحقيق شكل من أشكال الوحدة الفنية في نتاجه الشعري ، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه على العمل الأدبي من قيمة جمالية وتعبيرية تجذب المتلقي وتجعله مشاركاً للمبدع في تجربته .

وإذ قد عرفنا قيمة هذا العنصر ووقفنا على أثره في العمل الأدبي فيجدر بنا أن نتعرف على حقيقته ومفهومه كما رآه نقاد الأدب ، والحق إن هؤلاء النقاد مختلفون في تعريفهم للصورة كلاً بحسب رؤيته وتوجهه ، ونطالع هذه التعريفات وتلك المفاهيم فنرى أحدهم يقول في تعريفها إنها " الأداة التي تتوسط – دائماً – بين الروح والمعرفة أو بين الدخل والخارج " [٢] .

غير أن هذا التعريف يركز على حقيقة الصورة وماهيتها دون أن يشير إلى وظائفها وأهدافها ، وهذه الوظائف وتلك الأهداف نلمحها في مفهوم الدكتور " صلاح رزق " للصورة فهو يقول : " إن الصورة تعني برسم المشاهد التي تصف حالة أو تجسد حركة أو تشير إلى دلالة " [٣] .

والحق إن تعريفات النقاد للصورة كثيرة ومتنوعة ، وهذه الكثرة وذلك التنوع يشير إلى عظم خطرها وقيمة دورها في العمل الأدبي ،غير أننا نؤثر الإيجاز في

(١) السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية: ص٩٣ .
(٢) عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في شعر زهير بن أبى سلمى ، ص١٥٠ ، دار العلوم الرياض ١٩٨٤م .
(٣) من النص الأدبي عصر صدر الإسلام وبني أمية ص١٦٦ ، القاهرة ١٩٨٢م .

هذا المقام والاقتصار على ما أوردناه من تعريفات يمكننا من خلالها ومن خلال غيرها الوقوف على وظائف الصورة وما تؤديه من دور في الإبداع الأدبي، وهذه الوظائف والأهداف يمكن إجمالها فيما يلي: الشرح ، التوضيح ، المبالغة ، التحسين ، التقبيح ، الوصف ، المحاكاة .

هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سلفاً من أنها قد تسهم في تحقيق شكل من أشكال الوحدة الفنية في القصيدة الشعرية ، وذلك من خلال عملها على تنمية الحدث الشعري وتطويره ، ثم هي بعد ذلك تهدف إلى الإقناع والتأثير في المتلقي وجذبه إلى العمل الأدبي ، وبعد هذه المقدمة الموجزة نتوقف مع " ابن زريق " متناولين عنصر التصوير في قصيدته ، وفي دراستنا لهذا العنصر نتناوله من زوايا ثلاث فنبدأ بدراسة منابع الصورة ورافدها عند الشاعر ثم نثني بدراسة أشكال الصورة وأنواعها عند " ابن زريق " وأخيراً تأتي الوسائل التي استعان بها الشاعر في تشكيل صورته ومن ثم أداؤها للوظائف والأهداف المنوطة بها.

أ – منابع الصورة وروافدها في عينية "ابن زريق" :

لكل صورة فنية مكتملة ينابيع وروافد أو قل مؤثرات تسهم في تشكيلها وتعمل على تكوينها ، وهذه الينابيع وتلك الروافد قد تكون خارجية مصدرها البيئة بما تحويه من زمان ومكان وعادات وأعراف وتقاليد وغيرها ، وإما داخلية ،وحينئذ يكون مصدرها ذات الأديب، وأداتها حسه ومشاعره وموهبته . وفي عينية " ابن زريق " نرى هذه المؤثرات وقد عملت عملها فحركت ملكة الإبداع عند الشاعر ، ومن ثم رأينا في قصيدته تلك الصورة الفنية المستكملة للمقومات والعناصر التي يتطلبها الموقف الشعري ، وبهذا استطاع " ابن زريق " إقامة علاقات جديدة بين الأشياء الملموسة والمشاعر المتدفقة ، ومن ثم قدم لنا عالماً رحباً من الخيال

والتصوير الفني الممتع ، وفي دراستنا لمنابع الصورة ورافدها في قصيدة " ابن زريق " يلفت نظرنا ويثير انتباهنا أن المشاعر الخاصة والأحاسيس الذاتية تأتي في طليعة هذه الينابيع التي استمد منها الشاعر صوره واستعان بها في توضيح فكره وموقفه .

فها هو ذا قد ضاقت نفسه ونأت بحمل الخطوب فأصبح لا يقوى على حملها ، ومن ثم تتفجر مشاعره فتسفر عن صورة تعبر عن ذلك كله ، انظر إليه يقول عن نفسه .

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[1]

إن المشاعر والأحاسيس تمثل المصدر الرئيس الذي انطلق منه الشاعر في تصوير ما يموج في نفسه وما يعتمل في خاطره ، والصورة باعتمادها على هذا المصدر حملت قدراً كبيراً من التوفيق ذلك أنها اعتمدت على شعور صادق وإحساس متميز.

وفي موقف آخر يعلن الشاعر عن ألمه وحزنه وضيقه بما يوجه له من لوم فيقول مخاطباً زوجه أو نفسه.

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عسفه فهو مضني القلب موجعه[2]

إن قلبه هزيل ضعيف أرهقه المرض ومن ثم بدا مرهقاً كليلاً لا يقوى على المجاهدة، صور الشاعر ذلك كله من خلال كناية لطيفة رأيناها في قوله " مضني

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .
(٢) نفسه .

القلب موجعه " ولسنا نرى مصدراً آخر لهذه الصورة الرائقة المعبرة إلا إحساس الشاعر ورقته ومشاعره المتأججة والمهتاجة .

وفي موقف آخر لا يستطيع الشاعر تحمل ألم الفراق والبعد عن الأحبة ومن ثم ينفذ صبره وتضيق نفسه فيعبر عن ذلك بقوله:

لا أكـذب الله ثـوب العـذر منخـرق عنـــي بفرقتـــه لكـــن أرقعـــه[1]

وفي هذا الموقف يبدو العذر وهو الشيء المعقول في صورة ثوب قد تخرق وتقطع فهو لا يقي صاحبه ولا ينتفع به لابسه .

لقد نقل المعقول غير المدرك إلى صورة المحسوس وهي طريقة تأسر المتلقي وتجذب انتباهه وتثير مشاعره ، وما ذلك إلا لأن الشاعر قد نفذ إلى صورته تلك من خلال شعور قوي وتجربة صادقة ، على أننا لا نبغي عرض كل صورة كان مصدرها أو منبعها شعور الشاعر وإحساسه .

فهذا المصدر – فيما نظن – يكمن خلف كل صورة فنية متكاملة ، ومن ثم فإن الروافد الأخرى التي سنعرض لها تأتي بمثابة المعين والمساعد على استكمال الصورة لمقوماتها وأداء دورها .

وهنا يأتي دور المؤثرات الخارجية التي أشرنا إليها سلفاً والتي يأتي في طليعتها الزمان، وهو عنصر يستعين به الشاعر فيمثل بالنسبة له منبعاً ثراً يستقي منه بعض صوره فتكتسب هذه الصور قدراً من الحيوية وذلك بما له من قدرة على التحرك في الماضي والحاضر والمستقبل مما يمكن الشاعر من بعث الحياة في صوره وبث الروح في أوصالها، و" ابن زريق " حين يستخدم الزمن مصدراً لخياله

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص ٧٧ .

ومنبعاً لتصويره يستخدمه بلفظه الصريح " الزمان " كما يستخدمه من خلال ألفاظ تعبر عنه وتؤدي مؤداه وذلك من مثل الأيام والليالي والدهر وغيرها . فإذا جئنا إلى الطريقة الأولي التي يعبر بها عن الزمان بلفظه الصريح رأينا الزمن عنده شخصاً يدفعه إلى السفر والترحال وفراق الأحبة ، ومن ثم يكون ألم الشاعر وحزنه الشديد .

إذا الزمـــان أراه فـــي الرحيـــل غنـــى ولو إلـى السند أضحى وهو مربعه[1]

إن الزمان هنا هو المحرك بل المتحكم في مصير الشاعر الذي لا يملك سوى الاستجابة له ، وهنا تظهر براعة الشاعر وقدرته على التشخيص حينا صنع من الزمان إنساناً يؤثر ويتأثر؛ ذلك أن الزمن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإنسان وحياته كما يرتبط بمشاعره وأحاسيسه فيؤثر فيها سلباً أو إيجاباً ، ويبدو تحكم الزمن في مصير " ابن زريق " كبيراً ما دعاه إلى أن يسلم له نفسه ، ومن ثم لا يملك الا رجاءه والطلب منه في ضعف قد يصل إلى حد التذلل والتزلف، وهذا ما نراه في حديثه لمنزله وسؤاله له ما إذا كان الزمان سيعيد إليه ما فقده، وما إذا كانت الليالي سترجع له ما مضي

بـالله يـا منـزل القصـف الـذي درست آثـــاره وعفـــت مـــذ بنـــت أربعـــه

هـــل الزمـــان معيـــد فيـــك لـــذتنا أم الليـــالي التـــي أمضـــته ترجعـــه[2]

وقد رأينا كيف عبر الشاعر عن الزمان بلفظ يدل عليه وهو الليالي ، وواضح أن لها ما للزمان من قدرة على التحكم في مصير الشاعر بل وأن تفعل فيه ما تشاء، إنها أضنت جسمه بالفراق وهي التي تملك جمعه بحبيبته متي أرادت ذلك

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه ، ص٧٨ .

.

عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعنا يوما وتجمعه[1]

ولا يقل دور الأيام خطراً في حياة الشاعر فهي عليه ثقيلة لا تكاد تتحرك وليس ذلك وحسب بل إن ما تدفعه إلى الشاعر من حسرة تقطع قلبه .

إني لأقطع أيامي وأنفدها بحسرة منه في قلبي تقطعه[2]

وفي ظني أن الشاعر قد أجاد حين نقل الزمان إلى المكان فجعل الأيام أرضاً طويلة يحاول الشاعر قطعها والتغلب على مسافاتها ، وهو تصوير يحمل من الجدة قدراً كبيراً ، وعلاقة الشاعر بالزمن ممثلة في أيامه لا تبدو طيبة ، فهي دائماً ما تحمل له ما يسوؤه ويرهقه فقد أثقلت عليه وحملت له الحسرة والألم، كما حملته إلى محبوبته وهو ما يسبب ألماً للشاعر نفسه ، إنها تمثل له
عنصر الخيانة والمفاجأة غير السارة.

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني به ولا أن بي الأيام تفجعه[3]

ويتحالف الدهر مع الأيام – إذ هما ينتميان إلى عنصر واحد هو الزمان – على صنع أزمة الشاعر فكما فجعت الأيام حبيبه كان الدهر سبباً في فجعته هو .

هذا الزمن الذي أتاه من حيث لا يتوقع وهنا تكمن موهبة الشاعر الذي جعل من الدهر إنساناً يتمتع بعدد من الصفات البشرية والخصائص الإنسانية. ويعطي "

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .

ابن زريق " للزمن قدرات أكبر وخصائص تجعله أشد تأثيراً في الحياة بعامة والبشر بخاصة ، فهو الذي يعطي ويمنع ويؤلم ويفرح وليس ذلك وحسب فلديه من القدرة على المفاجأة وخداع الإنسان ما يجعله متحكماً فيه مرتبطاً به ، انظر إليه يقول :

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه أربا ويمنعه من حيث يطمعه[1]

وهذا الدهر يملك من القدرة على إرهاق الشاعر والتضييق عليه لقد كان قوياً متماسكاً ولكن قواه خارت أمام الدهر بخطوبه وصروفه.

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[2]

وفي ظل هذا العجز الكامل أمام الدهر الذي بدأ في صورة إنسان متحكم له قدرات غير عادية لا يملك الشاعر سوى الصبر على هذا الخصم الشديد

لأصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه[3]

وهكذا شكل الزمن بألفاظه المختلفة عنصراً مهماً في الصورة الشعرية في قصيدة ابن زريق استغله الشاعر في بناء صورة فنية متكاملة تشرح فكرته وتوضح موقفه وتبرز مشاعره.

ويظهر المكان في قصيدة " ابن زريق " بوصف رافداً ثالثاً من روافد الصورة عند الشاعر ، والمكان في قصيدة ابن زريق لا يذكر لذاته وإنما يذكر لما ارتبط به من مشاعر مبعثها تاريخ وعلاقات مع الآخرين ، وربما يظهر المكان في هذه القصيدة لارتباطه بأحداث ومواقف أثرت في الشاعر سلباً أو إيجاباً .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ،ص٧٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه : ص٧٨ .

على أن المكان لم يأخذ من عناية الشاعر ما يتناسب مع موضوع قصيدته الذي هو الغربة أو أثر الرحلة والسفر عليه، ويمكن أن يقال رداً على هذا بأن الشاعر قد انطلق من هذه الرحلة الخاصة التي كانت سبباً في إبداعه تلك القصيدة إلى إبراز أثر السفر عموماً والغربة في مجملها على نفسه ، بمعنى أن الشاعر قد انطلق من حالة خاصة إلى حالة عامة؛ ومن ثم لم تكن الأماكن التي ارتادها في رحلته الأخيرة هي محط عنايته .

ومن هنا رأينا المكان وقد أخذ مساحة تقل كثيراً عن المساحة التي أخذها الزمن، ونقف مع المكان في عينية " ابن زريق " فنراه قد جاء على نمطين مختلفين : فالنمط الأول هو الذي يشكل فيه عماد الصورة وركنها الرئيس ، وهذا ما رأيناه في حديثه مع المنزل، إذ جرد منه إنساناً يخاطبه بل يسأله وكأنه يستنطقه، ويبدو أنه لم يجد عنده من الإجابة ما يروي غلته فينطلق من سؤاله
إلى الدعاء له، فها هو ذا يخاطب منزل العيش القديم فيقول :

بالله يا منزل القصف الذي درست	آثاره وعفت مذ بنت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا	أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله	وجاد غيثا على يمناك يمرعه[1]

ولسنا نشك في أن المكان " المنزل " هنا يرتبط بأحداث ومواقف سابقة تأثر بها الشاعر سلباً حين فارقها وإيجاباً حين تذكر لذته فيها واستمتاعه بها ، كذلك

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

يرتبط المكان هنا بمشاعر وأحاسيس كان مبعثها علاقته مع الآخرين ، ومن هذا النمط تلك الصورة التي شكل المكان عمادها الرئيس هي تلك الصورة التي رسمها الشاعر لقلقه وعدم استقراره إن مضجعه لا يطمئن لجنبه، وكأن المكان يضطرب ويتحرك كلما حاول الشاعر النوم ، على أن المكان الذي يضم حبيبه هو أيضاً مضطرب قلق غير مستقر، وكأن المكان قد أصبح عند "ابن زريق" وقد دبت فيه الحياة يتأثر بأحداثها وتصيبه نكباتها ، فلم يكن ذلك من المضجع إلا بعد وقوع الفراق انظر إليه يقول :

لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا لا يطمئن له مذ بنت مضجعه[1]

وأما النمط الثاني : فإن المكان يظهر فيه بوصفه عاملاً مساعداً في رسم الصورة بحيث لا يمثل ذلك المكان جسم الصورة وعمادها الرئيس ، وهو ما نراه في رسمه لصورة الحبيبة عند وداعها ، فهو لا يراها شخصاً عادياً وإنما قمراً مضيئاً ، غير أن الشاعر يحتاج إلى تحديد الصورة ورسمها في دقة تمكنه من توصيل مشاعره وأحاسيسه إلى المتلقي ، فيحدد مكان ذلك القمر بل وموقعه بين الأفلاك يقول :

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه[2]

إن حبيبه في " بغداد " بل هو في حي من أحيائها هو الكرخ ولما كان هذا الحبيب ليس شخصاً بل هو قمر كان مطلعه من فلك الأزرار ، وفي ظني أن الشاعر قد أجاد في رسم الصورة بذلك الترشيح للاستعارة حيث وضع ما يناسب

(١) نفسه .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

المستعار منه وهو القمر فجعل مطلعه فلك الأزرار ، وما يناسب المستعار له وهو الحبيبة فجعل مكانها الكرخ خصوصاً وبغداد عموماً .

الطبيعة :

وليس للطبيعة حضور واضح في قصيدة " ابن زريق " على الرغم من أن مكان الرحلة هو الأندلس ، وليس من اليسير على من يرتاد هذا الصقع أن يتجاوزه دون أن يؤثر فيه او يتأثر به ، غير أن " ابن زريق " وكما يبدو كان مشتغلاً بقضيته الخاصة منكفئاً على مشاعره الداخلية ، ومن ثم لم يلتفت إلى ما في طبيعة الأندلس بخاصة وإلى الطبيعة بعامة ، فلم نراها عنده إلا بقدر ما تظهر ما يعانيه من تعب وما يكابده من مشقة .

وهنا تبرز الطبيعة طرفاً من أطراف الصورة ممثلة في الأرض بطولها وعرضها، إنه في حله وترحاله يشبه من عهد إليه بقطع الأرض طولاً وعرضاً .

كأنما هو من حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه[1]

وهكذا تعددت روافد الصورة وتنوعت منابعها عند " ابن زريق " غير أنها قد اختلفت من رافد إلى رافد ومن منبع إلى منبع ، بحسب المساحة والقيمة والأهمية التي تتمثل في كل واحد منها ، وهذا بدوره يتوقف على مشاعر الشاعر والقضية التي كان يعالجها في هذه القصيدة .

ب – أنماط الصورة في عينية ابن زريق :

(١) نفسه .

الصورة الفنية التامة الأركان المستوفية للمقومات لا تخلو من نمط ينتظمها أو شكل فني يحتويها ، على أن صنع هذا النمط أو ذلك الشيء يتوقف على الحالة الشعورية للمبدع وقدرته على الخلق والإبداع .

وفي عينية " ابن زريق " نرى للصورة أشكالاً مختلفة وأنماطاً متعددة ، وهو ما يشير إلى قوة عاطفته وصدق تجربته وتأجج مشاعره وسعة خياله ، هذا بالإضافة إلى موهبة فطرية تميز بها الشاعر وقدرة على التأثير قلما تتوافر لغيره وواضح أن " ابن زريق " كان يؤثر في قصيدته أنماطاً صورية بعينها وأشكالاً من الصورة لا يكاد يتجاوزها ، وهو يبغي من وراء ذلك نقل تجربته كاملة وبصدق يثير الإعجاب ، وما ذلك إلا لأن الصورة هي الوسيلة الفنية المثلى لنقل تجربة الشاعر وحمل مشاعره وأحاسيسه إلى المتلقي في سهولة ويسر .هذا بالإضافة إلى ما تضيفه على التجربة من صدق يجعل المتلقي ينفعل بها ويتفاعل معها .

ونطالع قصيدة " ابن زريق " فنرى فيها أنماطاً مختلفة للصورة ، فهي عنده إما تشخيصية أو تجسيدية أو سمعية أو بصرية أو تذوقية وغيرها مما سنقف عليه في دراستنا للصورة في القصيدة ، ولعل أبرز هذه الانماط وأظهرها في القصيدة هو أسلوب التشخيص.

١ – الصورة التشخيصية :

قلنا: إن الصورة التشخيصية تأتي في مقدمة الأنماط الصورية عند " ابن زريق " وهو ما يشير إلى موهبة الشاعر وتمكنه في فنه ؛ ذلك أن التشخيص " ضرب من التعبير يلجأ الإنسان إليه تلبية لنداء الفطرة الكامن في أعماقه، فالإنسان بفطرته مشخص إذا تمثل قوة خفية تستعصي على الإدراك والامتثال وهبها من سماته وأماراته ما يدخلها في حيز إدراك حاسة أو أكثر من حواسه ،

وخلع عليها من أقنعته وثيابه ما يجعلها ماثلة للذهن قابلة للاستحضار والتصور "[١] .

فالتشخيص هو الوسيلة للربط بين المبدع والمتلقي يستخدمها الشاعر في نقل مشاعره وبعث أحاسيسه حية في نفس مستمعه ، وما ذلك إلا لأن " هذه الوسيلة تقوم على أساس تشخيص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صورة كائنات حية تحس وتتحرك وتنبض بالحياة " [٢] .

فالتشخيص باختصار هو نقل المعنى العقلي المجرد أو تحويل الجامد في الطبيعة وجعله في صورة الكائن الحي الذي يتحرك وينبض بالحياة ، ومن خلاله يتمكن الشاعر من نقل المعنى إلى المتلقي أو الترجمة لإحساس خالجه أو شعور غشيه، وربما أراد منه تقرير موقف أو شرح فكرة دون إسهاب أو تطويل .

وفي قصيدة " ابن زريق " عدد من الصور التشخيصية التي يحول فيها الشاعر المعنى المجرد إلى المحسوس الحي ، وينقل فيها الجامد من الطبيعة إلى الحي المتحرك، ولعل أول ما يلقانا من هذه الصور هو ما نراه في حديث الشاعر إلى نفسه في مطلع القصيدة ؛ إذ صنع منها إنساناً يخاطبه ويطلب إليه ألا يلومه أو يعذله على كثرة سفره فإن ذلك يؤلمه، هذا إذا أخذنا برأي الذي يقول : إن خطاب الشاعر هنا لنفسه لا إلى زوجه ، يقول محولاً المعنى المجرد " النفس " إلى المحسوس الحي " الشخصي " .

---

(١) ايمن ميدان : الصورة الفنية في الشعر الغرناطي ص٨٨ اكتوس للترجمة والنشر ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م .

(٢) علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثة ،ص٨٩ ، ٨٠ ، مكتبة دار العلوم القاهرة ١٩٧٨م .

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه قـد قلـت حقـاً ولكـن لـيس يسمعـه

جـاوزت فـي لومـه حـد المضـر بـه مـن حيـث قـدرت أن اللـوم ينفعـه

فاسـتعملي الرفـق فـي تأنيبـه بـدلاً من عسفه فهو مضني القلب موجعه[1]

والنوى: وهو البعد أو الفراق عنده إنسان يحمل من الشر ما يخيف الشاعر، ويهدده ويكثر من تأنيبه ، يقول :

يكفيـك مـن روعـة التفنيـد أن لـه مـن النـوى كـل يـوم مـا يروعـه[2]

والزمان عنده رجل قوي يشير عليه بل ويتحكم في مصيره أحياناً ، فإذا أشار عليه بأن في رحيله فائدة وفي سفره نفع فلا يملك الشاعر إلا أن يطيعه ويستجيب له .

إذا الزمـان أراه فـي الرحيـل غنـى ولو إلى السند أضحى وهو مربعه[3]

وللزمن دور آخر في حياة الشاعر حتى ليتوهم أنه يملك إسعاده وشقاءه ومن ثم نراه يعيد إليه الزمن أياماً مضت ولذة فقدها ، فيقول :

هـل الزمـان معيـد فيـك لـذتنا أم الليـالي التـي أمضـته ترجعـه[4]

ولا يزال الشاعر يلح على أن يجعل من الزمن كائناً يضفي عليه صفات إنسانية تبعث فيه من الحيوية ما يجعله قادراً على التحكم في مصير الشاعر ، وهو

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ .

تحكم قد يصل إلى المبالغة ، فالدهر " الزمن " يعطي ويمنع ، وليس ذلك وحسب فإن هذا العطاء وذلك المنع قائم على الخداع والمفاجأة ، وهي صفات إنسانية جديدة أضافها الشاعر إلى الزمن " الدهر " .

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه[١]

إن خداع الدهر له مستمر فهو دائماً ما يفاجئه فيأتيه من حيث لا يتوقع ،

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني به ولا أن بي الأيام تفجعه[٢]

فهو يصيبه ويفجعه حين كان يظن أنه في مأمن منه .

وواضح أن الشاعر لم يعد قادراً على الصمود أمام خداع الدهر وصروفه وتحكمه فيه ، فرأيناه مستسلماً ضعيفاً لا يملك حيال أفعال هذا الكائن المتحكم سوى الصبر والتحمل، يقول:

(١) نفسه : ص٧٧ .

(٢) نفسه : ص٧٨

لأصـــــبرن لـــــدهر لا يمتعنـــــي بـــه ولا بـــي فـــي حـــال يمتعـــه[1]

يبدو أن الشاعر قد فقد الأمل في أن يعيد إليه الزمان ما فقده من لذة وما كان يملك من سعادة ، ومن ثم أيقن أن هذا الدهر لا يعطيه من المتعة واللذة كما لم يعط حبيبه الذي فقده، أرايت كيف استطاع الشاعر أن يصنع من المعنى المجرد كائناً حياً يحس ويتحرك ويتصرف كما يتصرف الإنسان بل ربما تفوق عليه وكان أكثر قدرة على الشاعر وتحكماً فيه؟ ويبدو أن الشاعر مغرم بتحويل المعنى المجرد إلى كائن حي، فـ " البغي " عنده إنسان قوي يصرع صاحبه وربما أودى بحياته .

والحرص فـي الـرزق والأرزاق قـد قسـمت بغـي ألا إن بغـي المـرء يصـرعه[2]

وللشاعر قدرة على الابتكار واصطناع المعاني الجديدة فـ " الرشد " عنده كائن يتحرك فيظهر ويختفي ويمضي ويعود ، ومن ثم فإن الشاعر إذا ظهر له هذا الرشد في مكان ما تبعه وسار إليه .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ .
(٢) نفسه ص ٧٨ .

ألا أقمـــت وكـــان الرشـــد أجمعـــه لـو أننـي يـوم بـان الرشـد أتبعـه[١]

ما أروع جعله الموت في صورة الغول حين صنع منه وحشاً مفترساً ينقض على الشاعر أو حبيبه في شراسة ، وإن كانت هذه الصورة ليست جديدة إلا أن بعث الحياة في المعقول وتشخيصه بالإضافة إلى هذا الثوب القشيب من اللغة والصورة قد جعل منها صورة تحمل كثيراً من الأثار والتشويق يقول :

وإن تغـــل أحـــدا منـــا منيتـــه فمـا الـذي فـي قضـاء الله يصـنعه[٢]

ويمكـن القـول إن الشـاعر قـد اسـتطاع مـن خـلال التشـخيص الترجمـة لأحاسيس خالجته، والإبانة عن مشاعر تملكته ، ثم هو فوق ذلك تمكن من نقل تجربته إلى المتلقي وإبراز صدق صاحبها.

٢ – الصورة التجسيدية :

إذا كانت الصورة التشخيصية تعني جعل الفكرة أو المعنى المجرد في صورة كائنات حية تحس وتشعر وتنبض بالحياة والحركة، فإن الصورة التجسيدية تعني فيما تعني " إعطاء المعاني المجردة صفات مادية ، وتحويلها من أصلها إلى وضع حسي ملموس في صور شعرية معقولة ، وقد تكون مخالفة للواقع " [٣] .

وإذاً فالتجسيد أو التجسيم هو:عبارة عن وضع فكرة أو معني مجرد في قالب مادي محسوس وذلك بقصد توضيحها أو اظهارها بحيث تكون قريبة إلى المتلقى بحيث يتمكن من إدراكها واستيعابها، ذلك أن الشيء المحسوس بطبيعته هو أقرب

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨.

(٢) نفسه ص٧٨ .

(٣) د / احمد هيكل تطور الأدب الحديث في مصر ص٣٣٢ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١م .

إلى الفهم من الشيء المجرد أو الذهني أو المعقول ، ويبدو أن " ابن زريق " قد أدرك هذا المعنى فتوخى تحقيق التواصل بينه وبين سامعه من خلال تجسيم المعنى المجرد أو تجسيده ، على أن الصورة التجسيدية في قصيدة " ابن زريق " أقل حضوراً من سابقتها حيث استولى التشخيص على جل عناية الشاعر لأسباب عرضنا لها ، لكن هذا لا يعني ضعف هذا النوع من الصورة في القصيدة فكثرتها أو قلتها لا تعد مقياساً لجودتها إذا عني بها الشاعر وحقق من خلالها أهدافاً كان يقصدها .

ويمكن القول إن الصورة التجسيدية عند " ابن زريق " تأخذ أشكالاً متعددة وذلك بحسب الحاسة التي ينقل إليها الشاعر ذلك المعنى المجرد ، ومن ثم نرى عنده الصورة البصرية والسمعية والتذوقية وغيرها، فمن الصور البصرية أعني التي تدرك بحاسة البصر هو ما نراه في قوله :

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[1]

فقد جعل من الخطب جسماً ثقيلاً يحمل حيناً وتضيق به الضلوع حيناً آخر والخطب معنى مجرد تحول إلى جسم يدرك بحاسة البصر .

ويتحول الصبر عند الشاعر إلى ثوب يحيط به غير أنه قد بلي وتخرق ، لقد حول الصبر وهو معنى مجرد إلى شيء محسوس يدرك بحاسة البصر وهو الثوب .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

لا أكـذب الله ثـوب الصـبر منخـرق عنـــي بفرقتـــه لكـــن أرقعـــه[1]

وكذلك النعيم تحول ثوباً لبسه الشاعر غير أنه لم يشكر الله عليه ، ومن ثم فقده وانخلع عنه فها هو ذا يقول :

ومـن غـدا لابسـا ثـوب النعـيم بـلا شـــكر عليـــه فـــإن الله ينزعـــه[2]

وتتحول الأيام عنده وهي معنى مجرد إلى صورة الأرض المحسوسة بحاسة البصر ، وهذه الأرض يقطعها الشاعر في حسرة وألم .

إنـــي لأقطـــع أيـــامي وأنفـــدها بحسـرة منـه فـي قلبـي تقطعـه[3]

ويلجأ الشاعر إلى حاسة السمع حين يتحول الذكر عنده إلى شيء ذي صوت يصدع القلب ويهتز له الفؤاد انظر إليه يقول :

ومـــن يصـــدع قلبـــي ذكـــره وإذا جـرى علـى قلبـه ذكـري يصـدعه[4]

ويتحول المعنى المجرد عند " ابن زريق " إلى محسوس يدرك بحاسة الذوق فيكون التجسيد وسيلة لنقل تجربته وحمل مشاعره إن البين أو الفراق عنده شيء مرٌّ يتجرعه الشاعر ويتحمل ألمه .

---

(1) شاكر البتلوني : نفح الازهار في منتخبات الأشعار ص٦ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(٣) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ .

(٤) نفسه .

كـم قائـل لـي ذقـت البـين قلـت لـه الـذنب والله ذنبـي لسـت أدفعـه[1]

ولا يختلف الصبر كثيراً عن هذا عند الشاعر فهو يتجرعه في مرارة وألم وذلك حين يصبر على فراق حبيبه، ويحاول تعويض هذا الفراق بكأس من الصبر يجرع منها ما يجرعه يقول :

اعتضـت مـن وجـه خلـي بعـد فرقتـه كأسـا تجـرع منهـا مـا أجرعـه[2]

وإذا كان الشاعر قد نقل المعاني المجردة إلى محسوسات تدرك بالحواس المختلفة فإن حاسة البصر أو التجسيد البصري قد أخذ المساحة الأوسع في القصيدة ، ثم كان التجسيد السمعي والتذوقي في مساحة أقل اتساعاً .

على أننا نلاحظ أن الشاعر لم يهتم بأن تكون الحواس الخمسة جميعها وسيلة له في التجسيم أو التجسيد ، حيث لم نر لحاستي اللمس والشم ظهوراً واضحاً في القصيدة ، وإن كنا نرى ظلالاً للصورة اللمسية فيما عرضنا له من صور بصرية ، وذلك حين حول العذر إلى ثوب والأيام إلى أرض وغيرها ، فهنا قد يشترك المدرك بالبصر مع المدرك بحاسة اللمس.

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ .

(٢) نفسه ص٧٨ .

٣ – الصورة النفسية :

ينقلنا الشاعر بواسطة هذا اللون من التصوير إلى داخله وذلك عن طريق رسم لوحة متكاملة لما تمور به نفسه ويعتلج في خاطره ، وفي هذه اللوحة يتبدى لنا صراع الذات مع الواقع وما تموج به نفس الأديب من تناقضات ، يضاف إلى ذلك ما يملكه هذا اللون من قدرة على نقل المشاعر والأحاسيس نقلاً صادقاً يجعل المتلقي يعيش ذلك الجو النفسي وتلك الحالة التي تنتاب الأديب، ذلك أن الصورة النفسية تعبر " عن حالة من حالات الصراع مع الذات وهي تعبير عن القلق أو الخوف أو الصراع الداخلي حول فكرة أو موقف أو حدث أو ظاهرة تلح عليه " (١).

وتبدو أهمية البعد النفسي في الصورة في أنه معيار أو مقياس لصدق التجربة، والإبانة عن مشاعر المبدع وحالته النفسية، وعينية " ابن زريق " يسيطر عليها جو نفسي واحد من بدايتها وحتي نهايتها، ومن خلال قراءتها نرى حالة داخلية وجواً نفسياً مفاده الخوف والقلق والتوجس ، يتبع ذلك كله حالة من الألم والندم و " ابن زريق " قد استطاع نقل ذلك كله من خلال صور نفسية معبرة وفي الحق إن صوره في مجموعها على اختلاف أشكالها تسهم في نقل تلك الحالة ، غير أن من الصور ما يمكن أن نطلق عليه الصورة النفسية ، ذلك أنها قد خلصت لتصوير الحالة الداخلية والجو النفسي المسيطر على الشاعر، ومن هذه الصور ما بدا في مطلع القصيدة من ألم وضيق جراء اللوم أو العتاب الموجه إليه، ثم إن الشاعر ضائق النفس لا يقوى على تحمل النكبات، وتبدو براعة الشاعر حين يرسم لوحة فنية تصور حالته النفسية وشعوره المسيطر، ومن خلال هذه اللوحة نغوص

(١) قيس كاظم الجنابي : من انماط الصورة في الشعر العراقي الحديث ، مجلة البيان عدد ٧٠ ص٢٧٣ ديسمبر ١٩٨٨م الكويت .

في أعماق الشاعر ، وذلك من خلال صور آسرة ، وعبارات أخاذة ، إنه يمضي أيامه في حيرة وحسرة تنهش قلبه ، ومن ثم فإنه لا ينام ليله لما ينتابه من لوعة الفراق وألم البين إن مضجعه قلق غير مطمئن ، وما ذلك إلا لقلق الشاعر وألمه ، وهي صورة فنية معبرة وجيدة في الوقت نفسه وفي هذه اللوحة ندرك جواً من الألم والخوف والقلق واللوعة كل ذلك ندركه

حين تطالع قوله :

إنـــي لأقطـــع أيـــامي وأنفـــدها بحســرة منـــه فـــي قلبـــي تقطعـــه

بمـــن إذا هجـــع النـــوام بـــت لـــه بلوعـــة منـــه ليلـــي لســـت أهجعـــه

لا يطمـــئن لجنبـــي مضـــجع وكـــذا لا يطمـئن لـه مـذ بنـت مضـجعه[1]

إن " ابن زريق " ليعيش حياة قلقة فهو دائم الخوف والتوجس من صروف الدهر فهو لا يأمنه ، وهذا ما نلحظه في قوله :

فكنـت مـن ريـب دهـري جازعـا فرقـا فلـم أوق الـذي قـد كنـت أجزعـه[2]

وواضح أن الشاعر قد كان في حرص دائمٍ وتأهب للدفاع عن نفسه أمام هذا الدهر ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يدفع عن نفسه ما كان يخافه أو يحرص على النجاة منه .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ص٧٨ .

ومما سبق يمكن القول: إن " ابن زريق " قد تمكن من نقلنا إلى عالمه الخاص أو نقل ذلك العالم إلينا عن طريق صور معبرة كان البعد النفسي هو العماد الذي ارتكزت عليه .

٤ – الصورة الحركية :

الصورة الحركية من أصعب أنماط الصورة وفيها تبدو قدرة الشاعر على إبداع الصورة وتشكيلها فنياً وبعث الحياة فيها ، ففي هذا النوع من التصوير تبرز عبقرية الشعر والتي تكمن في إبراز الفاعلية والنشاط الحركي الذي ينساب على سلسلة من لحظات متعاقبة ، وتكمن صعوبة هذه الصورة في أن " تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه " [١] .

ويمكن القول في تعريف هذه الصورة ووضع حد لها : إنها ذلك النوع من التصوير الذي يعني الشاعر في تشكيله له بالحركة فيمنحها جل اهتمامه بهدف إضفاء نوع من الفاعلية والتوتر على النسيج الشعري ، ونطالع قصيدة " ابن زريق " فلا نجد لهذا النوع من التصوير حضوراً كبيراً ذلك أنه يعتمد في الأساس على مفردات الطبيعة يستعين بها الشاعر في بعث لون من الحركة والنشاط في صورته الشعرية ، وقد قلنا قبل ذلك إن " ابن زريق " لم يكن مشغولاً بالطبيعة ومفرداتها بقدر ما كان مشغولاً بذاته وإحساسه الداخلي وشعوره الخاص ، ومع ذلك فإننا نجد لهذا النوع وجوداً بشكل من الأشكال ، ولعل أبرز أمثلته في القصيدة هو ما رأيناه في قوله مشبهاً نفسه بمن عهد إليه بقطع فضاء الله طولاً وعرضاً :

كأنما هو من حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه[١]

(١) عباس محمود العقاد : ابن الرومي حياته من شعره ص٢٩٣ ، دار الهلال القاهرة ١٩٦٩م.

في هذه الصورة نشاهد الشاعر في حالة حله وترحاله يتحرك في الأرض ذهاباً وإياباً في حركات متصلة متوالية ، ولكي تبدو هذه الحالة في وضوح شبه نفسه وهو على تلك الحالة برجل يقطع الأرض طولاً وعرضاً ، وليس ذلك رغبة منه بل هو موكل به لا يستطيع منه فكاكاً ، وقد استعان الشاعر في رسم هذه الصورة بمفردة من مفردات الطبيعة وهي الفضاء على أنها مفردة عامة شاملة تسهم في إبراز غرض الشاعر ومقصوده .

وفي موقف آخر نرى لوناً من الحركة يثير المتلقي بما يضمه ذلك المشهد من حركة متبادلة بين الشاعر وزوجه أو حبيبته، إنه يهم بالسفر يودعها ثم يهم بالرحيل وفي هذه اللحظة ترى الحبيبة وقد تمسكت به وتكاد تراها وهي تجذب ثوبه راغبة في بقائه ، ولكن الشاعر عازم على السفر ففي الموقف شد وجذب تراه من خلال قوله:

وكم تشبث في خوف الفراق ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه[٢]

وليضفي الشاعر على الموقف قدراً من المصداقية يستعين بأشياء منها : تحديد الزمن ، فهو يوم الرحيل ووقت الضحى ، كما يستعين بحركة لا شعورية تضاف إلى الحركة الفعلية السابقة ، وهي أن الدموع قد تساقطت دون ما قصد منه وهو ما دعا عيون الحبيبة لتذرف دمعها دون قصد أيضاً ، ألا ترى هذه الصورة المفعمة بالحركة التي تشي بالمشاعر الملتهبة والأحاسيس المتأججة ؟ وفي موقف آخر يبدو الشاعر تائهاً متحيراً لا يدري ما يفعل ، وهنا يظهر الناصحون حيث

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) شاكر البتلوني : نفح الازهار في منتخبات الاشعار ص٦ .

يقولون : إن الرشد في بقائك بين أهلك والصلاح في عدم سفرك وهنا يبدي الشاعر ندمه على أنه لم يتبع هذا الرشد ولم يسر إليه حيث كان، فها هو ذا يقول:

ألا أقمت وكان الرشد أجمعه لو أنني يوم بان الرشد أتبعه[1]

وفي هذا الموقف يبدو الرشد كائناً حياً يظهر ويختفي ويتحرك من مكان إلى مكان ، ويبدو الشاعر خلفه متحركاً يطلبه ويريد إدراكه فهو يتبعه ذهاباً وإياباً.

مما سبق يتبين لنا قدرة " ابن زريق " على رصد الحركة وتوظيفها في خدمة الموقف المراد تصويره ، وربما لا يعول الشاعر على المجاز في تصوير الموقف ونقل المشاعر وحمل التجربة فيستعين بالحقيقة ويستعمل اللفظ فيما وضع له ليؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها المجاز، وبراعة الشاعر تبدو في أن صورته التي تعتمد على الحقيقة لا تقل جودة عن تلك الصورة التي تعتمد على الخيال أو المجاز ، بل ربما كانت أصدق تجربة وأعلى فناً ؛ إذ الصورة " لا تلتزم ضرورة أن تكون الالفاظ أو العبارات مجازية فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال وتكون مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب وشعور صادق " [2] .

ونقف مع " ابن زريق " فنراه يتكئ على الحقيقة في عرض مشاعره ، وذلك في مطلع القصيدة ومن خلال حديثه إلى زوجه أو نفسه نتعرف على مشاعره وأحاسيسه ، إن اللوم يؤلمه والألم قد تجاوز حده في حين أنها لا تدرك ذلك يقول :

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

(2) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ص٤٣٢ .

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه قـد قلـت حقـا ولكـن لـيس يسمعـه

جـاوزت فـي لومـه حـد المضـر بـه مـن حيـث قـدرت أن اللـوم ينفعـه[1]

وفي موقف آخر مفعم بالحركة نرى الحبيبة وقد تمسكت بأهداب الشاعر وتعلقت به في حين أنه يرغب في الرحيل يقول :

وكـــم تشـــفع فـــي أن لا أفارقـــه وللضـــرورة حـــال لا تشـــفعه

وكـم تشـبث فـي خـوف الفـراق ضـحى وأدمعـــي مســـتهلات وأدمعـــه[2]

لقد استطاع الشاعر صنع هذه الحركة وبعث الحياة في الموقف المصور من خلال ألفاظ حقيقية لا يبدو للخيال دور فيها، وإذاً فنحن أمام موقف تتشفع فيه الحبيبة إلى الشاعر، لكنه مع حبه لها لا يمكنه تحقيق مرادها إذ الضرورة تدفعه إلى غير ذلك ، فلما لم تجدِ الشفاعة تشبثت به محاولة صده عن الرحيل ، ولكنها فشلت في ذلك أيضاً ، إنه موقف متكامل وصورة فنية آسرة كان عمادها الحقيقة وقوامها اللفظ المثير والجمل المتناسقة التي يأخذ بعضها بعناق بعض .

ولسنا نرى حضوراً كبيراً للصورة الكلية التي تشكل لوحة فنية تصور موقفاً متكاملاً بكل أبعاده ومعطياته ، هذا إذ استثنينا الموقف الذي يودع الشاعر فيه قمره الذي يسكن بغداد وفي أحد أحيائها وهو " الكرخ " تحديداً ، هذا القمر الذي نراه وهو يتشفع لديه ألا يفارقه ثم يتشبث به ممسكاً بأطرافه راجياً إياه ألا يرحل ، وفي هذه الحالة تتساقط أدمعه متزامنة مع تساقط دموع الشاعر ، إن هذا كله كان في بغداد وفي الكرخ تحديداً ويوم الرحيل وقت الضحى .

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(2) شاكر البتلوني : نفح الأزهار في منتخبات الأشعار ، ص٦ .

إنها صورة حية لموقف عاشه الشاعر وعشناه معه لحظة بلحظة من خلال تلك اللوحة التي تعاون على رسمها تصوير بياني عماده الاستعارة ثم ألفاظ حقيقية معبرة ، هذا إلى جانب التحديد المكاني والزماني الذي أكسب الموقف مصداقية وأضفى عليه قدراً من الإثارة والتشويق ، ولعل هذا الحضور القليل للصورة الكلية والذي لم نره في موقف واحد سببه أن الشاعر كان منهكاً ضعيفاً ولا يقوى على تصوير موقف يحتاج إلى طول نفس في تصويره ، كما كان يحتاج إلى إعمال عقل وذهن في ترتيبه في حين أنه كان مشغولاً بذاته ومشاعره الخاصة ، كما أن رسم مثل هذه اللوحات يحتاج إلى تفاعل بين المبدع والطبيعة وهذا ما لم يحدث لأسباب أشرنا لها قبل ذلك .

٥ – الصورة التجريدية :

فيما سبق من عرضنا لأنواع من الصورة رأينا براعة الشاعر في تشبيه المعقول بالمحسوس وهذا يتوافق مع طبيعة العرب وميولهم الفكرية ؛ إذ هم يميلون إلى التشبيه بالمحسوسات رغبة في تقريب الفكرة وتوضيح الموقف ، وأما تشبيه المحسوس بالمعقول أو المعقول بالمعقول بمعنى تشبيه فكرة ذهنية بفكرة ذهنية أخرى – وهو ما يطلق عليه الصورة التجريدية – فهذا أمر ليس شائعاً في الشعر العربي ، كما لم نره في قصيدة " ابن زريق " التي نحن بصدد دراستها ، فهذا النوع من التصوير يتطلب درجة من الفلسفة والتأمل ربما لا تتفق تتفق مع الطبيعة العربية البسيطة السهلة ولا تتناسب مع الموقف الذي عاشه " ابن زريق " وأراد نقله إلينا ، فالرجل يريد تصوير مشاعر داخلية معقدة وأحاسيس ملتهبة ، فلم يكن بوسعه فلسفة الأمر والبحث عن أسباب وتعليلات وبراهين . وإذا كان هذا النوع من

الصورة ليس متواجداً في القصيدة فإن ما يطلق عليه النقاد مصطلح التجريد[1] متواجد في القصيدة في أكثر من موقف ، ففي مطلعها يجرد الشاعر من نفسه وهي شيء معقول إنساناً يخاطبه وذلك حين قال " لا تعذليه " وإذا اعتبرنا أن المخاطب هنا الزوجة وليس نفس الشاعر فإنه حينئذ لم يخرج عن نطاق التجريد ، إذ استحضر غائباً ليس موجوداً فتحدث إليه وأبدى إليه ما أراد .

وفي موقف آخر يجعل الشاعر من منزله القديم إنساناً يتحدث إليه فيسأله حين يقول:

بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه

هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه[2]

(1) والتجريد : لغة إزالة الشيء عن غيره ، واصطلاحاً أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها المنتزع منها حتى كأنه قد صار منها بحيث يمكن أن ينتزع منه موصوف آخر بها . انظر : محمد التنجي المعجم المفصل في الأدب جـ١ ، ص٢٢٥ ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م . ومن صوره في علم البديع أن ينتزع الإنسان من نفسه شخصاً يخاطبه .

انظر : مجدي وهبة وكامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص٨٨ ط٢ ، ١٩٨٤م ، مكتبة لبنان .

(2) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

٦ – الصورة البرهانية :

وإذا كانت الصورة التجريدية ليست موجودة في قصيدة " ابن زريق " للأسباب التي ذكرناها فإن الصورة البرهانية لا تكاد تظهر في هذه القصيدة أيضاً وذلك لأسباب لعل أظهرها أن الشاعر لم يكن مشغولاً بالفلسفة والمنطق ، وإجاد البراهين والدلائل بقدر ما كان مشغولاً بشرح مشاعره وأحاسيسه وعرض ذكرياته .

ولكي نحكم على الصورة البرهانية في قصيدة " ابن زريق " من حيث وجودها أو عدمه نجد لزاماً علينا أن نتعرف على ماهية هذا النوع من التصوير فالصورة البرهانية كما يراها بعض النقاد هي التي " تنطوي على تعليل طريف أو تبرير منطقي يتخذ منه الشاعر دليلاً على فكرته فتبدو الصورة بذلك وكأنها تشبيه قائم على القياس " [١] .

وهي بهذا الشكل لا نكاد نراه في القصيدة إلا على استحياء ، ويمكن أن نلتمس لها مثالاً في ذلك الموقف الذي يطلب فيه الشاعر من نفسه أو زوجه أن تترك تأنيبه لتستعمل الرفق بدلاً له ، وهنا يأتي تعليله لهذا الطلب فقلبه ضعيف واهن لا يتحمل يقول:

([١]) د / عبد العزيز موافى ، مهدي الجواهري وخصائص فنه ، ص٣٢٧ ، رسالة ماجستير دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٢م .

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عسفه فهو مضني القلب موجعه[1]

وقوله مضني القلب موجعه كناية عن ألمه وضعفه وعدم تحمله وهو تبرير أو تعليل لما سبق من طلب .

وهكذا استوعبت القصيدة معظم أشكال الصورة ومن خلالها استطاع الشاعر نقل مشاعره وأحاسيسه إلينا ونقلنا إلى عالمه الخاص .

ج – وسائل تشكيل الصورة في عينية " ابن زريق " :

تتعدد الوسائل الفنية والأدوات التي استعملها " ابن زريق " في تشكيل صورته وهذه الوسائل تمثل الأساس الذي يبني عليه الأديب صورته ولهذه الوسائل قيمتها في خلق علاقات لغوية خاصة تلبس الألفاظ أثواباً جديدة ، ومن ثم يأتي دورها في تشكيل الصورة ، ذلك أن الصورة هي في حقيقتها لا تعدو أن تكون " خلق علاقات لغوية خاصة تكسب الكلمات بكارة جديدة ، وتخرجها من دلالاتها المباشرة إلى دلالات مجازية "[2] وخلق تلك العبارات اللغوية الخاصة هو ما يميز شاعراً عن شاعر أو أديباً عن أديب ، ولا يتأتى خلق تلك العلاقات للمبدع إلا من خلال وسائل وأدوات كان أبرزها في قصيدة " ابن زريق " الاستعارة والتشبيه والكناية ... وغيرها .

---

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(2) مدحت سعد الجيار : الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ص١٣١ ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م .

١ – الاستعارة :

تأتي الاستعارة في مقدمة الوسائل التي استعان بها " ابن زريق " في بناء صورته ومن هنا تنوعت أشكالها وتعددت أنماطها ، ذلك أن للاستعارة دورها الحيوي والخطير في تشكيل الصورة ومن ثم كانت عناية النقاد واهتمامهم بها حتي جعلها بعضهم أساساً يبني عليه الشعر في جملته ، فيرى أحدهم أنه يكاد يستحيل أن يكون الشعر شعراً بغيرها[١] .

وما ذلك إلا لأن الاستعارة تعد وسيلة ذات قيمة في تنمية اللغة وتوسيع مجالاتها فضلاً عن أنها هي القادرة على تخطي العلاقات الحرفية بين أجزاء الواقع وإعادة تشكيله من جديد .

هذا بالإضافة إلى أنها تمثل حلاً لمشكلة اللغة التي تقف عائقاً أحياناً أمام تدفق الشاعر، والتعبير عن مشاعره وأحاسيسه في إطار تجربة صادقة[٢] .

ولسنا في سعة من الأمر فنطيل الكلام في تعريف القدماء والمحدثين للاستعارة فما يهمنا هو إيجاد تصور مختصر لتلك الوسيلة ، وهذا التصور يمكن إيجازه في تعريف نستخلصه من قراءتنا لآراء القدماء في تعريفها فهي عندهم لا تعدو أن تكون استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة[٣] ، فالتشابه بين المستعارله والمستعار منه هو الأساس الذي تقوم عليه الاستعارة ، ومن ثم

---

(١) انظر : تشارلتن : فنون الأدب ص٩٤ ، ترجمة د / زكي نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢ ، القاهرة ١٩٥٠م .

(٢) انظر : مدحت الجيار : الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ص١٣٣ .

(٣)انظر : عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص٣٠ ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة ١٩٩١م . انظر : أسامة ابن منقذ : البديع في نقد الشعر ص٤١ ، تحقيق أحمد بدوي ، د / حامد عبد المجيد ، مطبعة الحلبي، مصر ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠م .

يكون قربها من الذهن وولوجها إلى العقل في سهولة ويسر ، ونطالع قصيدة " ابن زريق " فتلقانا الاستعارة في صورها المختلفة ، ولعل أبرز هذه الاستعارات ما نراها في قوله:

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[1]

فالخطب جسم ثقيل يحمله الشاعر ، وهذا الجسم قد تثاقل حتى ضاقت به أضلعه فالاستعارة مكنية حذف المشبه به فيها حتى صار المشبه من جنسه أو جزء منه، والاستعارة مع أنها ليست مبتكرة إلا أن صياغة الشاعر وجودة أسلوبه قد جعل منها صورة متميزة وآسرة في الوقت نفسه ، والفراق عنده إنسان يزعجه ويروعه ولذلك فهو لا يحتاج إلى ما يروعه أو يخيفه .

يكفيك من روعة التفنيد أن له من النوى كل يوم ما يروعه[2]

وكون النوى إنساناً يحمل تلك الصفات هي فكرة جديدة تأخذ بلب متلقيها وتثير انتباهه وتفكيره ، ويتصور الإنسان بصفاته المختلفة في أكثر من صورة عند الشاعر، فبعد أن كان ممثلاً في الفراق أو النوى فإنه في موضع آخر يأتيه في

إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ولو إلى السند أضحى وهو مربعه[1]

صورة الزمن الذي يشير إليه دائماً بالرحيل وهو أسيره لا يملك إلا الاستجابة له .

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .
(2) نفسه : ص٧٧ .

فالاستعارة هنا مكنية حذف فيها المشبه به وأبقى على شيء من صفاته أو لوازمه وهي الإشارة أو الرؤيا ليصبح الزمن " المشبه " فرداً من أفراد المشبه به " الإنسان " والاستعارة جيدة بما حملت من فكرة جديدة ولفظ موحٍ وأسلوب قوي ، والبغي في نظر الشاعر كائن قوي لا يقوى الإنسان على مجاهدته فهو يصرعه متى وقع بينهما الصراع .

والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي ألا إن بغي المرء يصرعه[٢]

فتشبيه الحرص على الرزق بالبغي وتحويل البغي إلى كائن قوي هي فكرة مبتكرة لا نظن أن الشاعر قد سبق إليها ، ومن هنا فقد اكتسبت صورته قدراً من الحيوية والأثارة ، أما تشبيه الدهر بالإنسان في عطائه ومنعه فهي فكرة مكررة وغير جديدة ، ومع ذلك فالصورة ليست ضعيفة وذلك بفضل ما في التعبير من خفة وفي اللفظ من جرس موسيقي وفي الأسلوب من حسن صياغة ، فها هو ذا يقول :

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه أربا ويمنعه من حيث يطمعه[٣]

ويشبه صفو الحياة بإنسان يودعه، وذلك في استعارة مكنية حذف المشبه به فيها ليبقى شيء من صفاته وهو الوداع ، ويصبح المشبه " صفو الحياة " فرداً من أفراد المشبه به " الإنسان " .

---

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

ودعتـــــه وبـــــودي أن يـــــودعني صـــفو الحيـــاة وأنـــي لا أودعـــه[1]

والاستعارة جديدة جيدة ، يعد الشاعر مبدعها .

وقد أجاد الشاعر حين حول الفراق إلى طعام مر مذاقه ، فجعل من الفراق مشبهاً ، ومن الطعام مشبهاً به ، مدعياً أن الفراق فرد من جنس المذوقات ،على أنه رمز إلى المشبه به المحذوف بقوله: " ذقت " لتصبح الاستعارة مكنية تشير إلى المعنى في تلميح دون تصريح ، وذلك في قوله:

كـم قائـلٍ لـي ذقـت البـين قلـت لـه الـذنب والله ذنبـي لسـت أدفعـه [2]

ولعل أروع استعاراته وأجملها مع أنها ليست مبتكرة هو جعله المنية غولاً يفترس الإنسان وذلك في قوله :

وإن تغـــل أحـــداً منـــا منيتـــه فما الذي في قضاء الله يصنعه [3]

لقد شبه المنية وهي الشيء المعنوي المجرد بالغول وهو الشيء المحسوس المشخص ، في استعارة مكنية تحمل من الإثارة والتشويق ما يجعل الصورة قريبةً إلى الذهن وثيقة الصلة بالمتلقي ، ومع أنها ليست مبتكرة إلا إنها بما حفلت به من لفظ موسيقي مؤثر ونسق تعبيري متناسق بالإضافة إلى اتصالها بالسياق وتعبيرها عن الأفكار السابقة عليها كانت في موضعها جيدة بل ومثيرة للقارئ لافتة لانتباهه آسرة لعقله وقلبه ، ويمكن القول : إن الاستعارة المكنية هي الأكثر حضوراً في هذه

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(2) نفسه : ص٧٨ .

(3) نفسه ص ٧٨ .

القصيدة ، ولعل لاتحاد واندماج المشبه في المشبه به المحذوف أثراً في تقوية الصورة وجعلها أكثر تأثيراً وأشد نفاذاً إلى ذهن المتلقي ، ومع ذلك فإن للاستعارة التصريحية حضوراً ندركه حين يصور الشاعر موقف الوداع لزوجه فيجعل منها قمراً مضيئاً يسكن بغداد ، فقد شبه الحبيبة بالقمر وحذف المشبه ليبقى المشبه به ، وفي ظني أن استخدام الاستعارة التصريحية هنا كان أكثر توفيقاً ومناسبة للسياق والموقف المصور، ففي حذف المشبه " الزوجة " وبقاء المشبه به " القمر " ما يجعل الصورة أكثر حضوراً في ذهن السامع ، وإدراك صفاتها أكثر يسراً عليه ، كما أنها تحقق المبالغة التي يطلبها الشاعر لحبيبته، وكأنه يقول : إنها ليست شبيهة القمر بل إنها هي القمر ذاته أو إن القمر قد تمثل فيها .

أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه[1]

وقد ازدادت الصورة جمالاً بتحديد المكان والزمان في الأبيات التالية التي تكمل الموقف وهو ما تعاون في رسم صورة كلية جيدة كانت الاستعارة التصريحية عمادها وركنها الركين ، على أن في القصيدة عدداً من الاستعارات التي لا تحمل قدراً من الجدة والابتكار ومنها قوله: " ثوب الصبر – ثوب النعيم – أقطع أيامي – لا يطمئن لجنبي مضجع ... وغيرها " ومع ذلك فإن تلك الاستعارات قد أسهمت في الإبانة عن شعور الشاعر وكونت صورة عن حالته الداخلية ، وذلك من خلال إسهامها في تشكيل صورة فنية كانت متناسبة مع السياق ومعبرة عن الموقف الشعري .

والخلاصة :

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧

إن الاستعارة في القصيدة قد جاءت في معظمها جيدة وافيه بالمراد وقد كانت في بعضها صدىً لأفكار شعراء سابقين ، وفي بعضها الآخر كانت نتاج فكرالشاعر وموهبته وتجربته مرتبطةً بحالته النفسية وشعوره الداخلي مما يؤكد موهبة " ابن زريق " وقدرته على نقل مشاعره وأحاسيسه في صدق دون تكلف .

٢- التشبيه :

من خلال دراستنا للصورة في عينية " ابن زريق " يتبين لنا أن الرجل قد أولى عنايته للاستعارة على اختلاف أشكالها وصورها ، ومن هنا كان التشبيه أقل حضوراً منها بحيث لا يشكل ظاهرة في النص بعامة والصورة الشعرية بخاصة ، لكنه موجود بصورة ما وله دوره الذي يؤديه في نقل التجربة من خلال إسهامه في تشكيل صورة أو صور معينة يتطلبها الموقف الشعري ، وإذا أردنا التعرف على هذا الشكل البلاغي رأينا أصحاب البلاغة يتقارب مفهومهم لهذا الاسلوب الفني .

وليس ثمة خلاف كبير بينهم في تصوره فهو عند بعضهم الإخبار بالشبه وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات وهو ما يوضحه قول " ابن رشيق " : " إن التشبيه هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه " [١] وللتشبيه تعريفات كثيرة لسنا بصدد حصرها فالمراد : هو الوقوف على تصور لهذا الأسلوب وفهم معناه ومدلوله، ويمكن القول : إن هذا الأسلوب يعني الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معني بالكاف ونحوه، وإذا كان للتشبيه دوره الخطير في بناء الصورة فإن " ابن زريق " لم يغفل ذلك الدور وإن لم يمنحه عنايته واهتمامه

(١) أبو على الحسن بن سيف ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ١ ، ص٢٨٦ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ، ط ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م .

، لكنه على كل حال قد استخدمه في مواقف معينة فأدى التشبيه دوره المنوط به في رسم صورة هذا الموقف فها هو " ابن زريق " يعاني قلقاً وتعباً من كثرة السفر وكأنه يضيق بترحاله ويتمنى لو أنه قد قر له قرار ، ومن هنا يعلن في نبرة عالية أنه في حله وترحاله يشبه رجلاً عهد إليه بقطع الأرض طولاً وعرضاً .

كأنمـــا هـــو مـــن حـــل ومرتحـــل موكـــل بفضـــاء الأرض يذرعـــه[1]

فالشاعر يشبه أمراً حسياً مقيداً بأمر حسي آخر مقيداً أيضاً يجمعهما التنقل الدائم وعدم الاستقرار ، غير أن المشبه به أمر بعيد الحصول مما يمنح المشبه صفة المبالغة في عدم الاستقرار وهو ما يقصد الشاعر إلى تصويره .

وفي موقف آخر يذم الشاعر الحرص على المال فيتصوره بغياً يصرع صاحبه .

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت بغـي ألا إن بغـي المـرء يصـرعه[1]

فالتشبيه في البيت غريب في بابه فالحرص يختلف كثيراً عن البغي غير أن الشاعر قد دخل إليه من باب آخر فاقتنص صفة القدرة في البغي على إهلاك صاحبه وهي الصفة التي قد تكون في الحرص على الرزق، ومن ثم جمع بينهما في تشبيه يجسد تلك الصفة في المشبه.

وعلى كل حال فالشاعر قد شبه معنى أو فكرة مجردة بفكرة مجردة أخرى وهو ما يسمى عند البلاغيين بتشبيه المعقول بالمعقول ، وهو ما يبرهن على قدرة الشاعر على التعبير عن الفكرة واختيار ما يناسبها من الأساليب ، ولسنا نجد في غير هذين الموقفين حضوراً للتشبيه ، هذا إذا استثنينا التشبيهات غير الصريحة مثل : قوله " ثوب العذر " و" ثوب النعيم " ناظرين إلى من عدها من قبيل الاستعارة . ومع هذا فقد كان اختياره بوصفه أسلوباً يبين عن مشاعر " ابن زريق " وأفكاره اختياراً مناسباً ومؤثراً في تشكيل الصورة والتعبير عنها .

٣ – الكناية :

إحدى وسائل بناء الصورة يستعملها الشاعر في الإبانة عن معان مستكنة في خاطره فيلمح إليها دون التصريح بها لغرض يقصده وهدف يرمي إليه ، وفي تعريفها يقول الشيخ عبد القاهر : إن الكناية تتحقق عندما " يريد المتكلم إثبات

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه " [1] .

وإذا كانت الكناية أسلوباً يعبر عن المعنى بالتلميح لا بالتصريح ، فهي أنسب للشعر ؛ إذ هو بطبيعته يعتمد على الإيحاء وهي الوظيفة نفسها التي تقوم بها الكناية ، هذا بالإضافة إلى ما تبعثه في المتلقي من إثارة وتشويق مبعثها التطلع إلى الشيء ومعرفة كنهه وحقيقته ،غير أن " ابن زريق " لم يكثر من هذا الأسلوب ذلك أن الاستعارة قد كانت هي الأسلوب الطاغي والمسيطر على الصورة في قصيدته ، ومن ثم فقد كانت محدودة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة في قصيدته ولعل أول ما يلقانا من كناياته المعبرة عن مكنون نفسه وما تنطوي عليه مشاعره قوله :

(جاوزت في لومه حد المضر به) فمجاوزة الحد في اللوم هي كناية عن زيادته زيادة مفرطة ، ومن ثم كان ضيق الشاعر بها وتبرمه منها .

وإذاً فالكناية هنا قد أعلنت عن حالة نفسيه مر بها الشاعر ، وهي حالة الضيق والتبرم والألم بسبب زيادة لوم الحبيبة وكثرة عتابها ، ويتصل بهذا الموقف موقف آخر يطلب فيه الشاعر أن تستبدل الحبيبة لومها له بشيء من الرفق ذلك أنه " مضني القلب موجعه " فقوله : مضني القلب كناية عن ألمه وضعفه وقلة تحمله، ولا أظن أن قوله : " مضني القلب " على حقيقته بل إنه أراد أن يقول إن قلبه متهالك ضعيف لا يقوى على الصبر، وفي ميدان الحكمة التي تبرز فلسفة الشاعر ورؤيته للكون والناس يأتي قوله :

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ص٦٦ ، تعليق : محمد شاكر الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة القراءة للجميع ٢٠٠٠م .

لكـــنهم كلفـــوا رزقـــاً فلســـت تـــرى مســـترزقاً وســـوى الغايـــات تقنعـــه[١]

قوله " كلفوا حرصاً " كناية عن ملازمة الحرص على الرزق للإنسان فليس من الممكن أن يكون هذا الحرص قد فرض فرضاً عليه أو كلف به ، فهي ليست صفةً ملازمةً له على الحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن يبرر لنفسه ذلك الترحال الدائم الذي كان سبباً في تلك الحالة التي وصل إليها ، وربما أراد أن يقنع نفسه بأسباب لا يراها حقيقية ولكنه يتوهمها رغبة في الوصول إلى رضى نفسه وإقناعها . ويتذكر الشاعر سعادته الغابرة وحبه القديم فيكنى عنه بالملك وذلك إبرازاً لقيمة ما فقده وأثر في حياته يقول :

رزقـــت ملكـــاً فلـــم أحســـن سياســـته وكـل مـن لا يسـوس الملـك يخلعـه[٢]

فالملك كناية عن الحياة الماضية بكل ما فيها من سعادة وهناء وقد أحسن الشاعر حين عبر بقوله " رزقت " ولم يقل " أوتيت " فيوحي أن الرزق ليس في المال وحسب قد يكون في سعادة أو حب ونحوها ، وفي ذلك زيادة في الندم على ما بدر منه من ترك تلك الحياة ، وكان الشاعر أكثر إحساناً حين عبر بقوله " لا يسوس الملك " وهو يقصد الحفاظ والحرص على ما مضى من سعادة وما ضاع من حب إذ السياسة أكثر مناسبة للملك وهو اللفظ المستعمل في الكناية فهي مشاكلة تعمق رؤية الشاعر وتؤكد فكرته .

وهكذا استخدم " ابن زريق " الكناية في مواقف بعينها فأفاد منها ووظفها في تصوير تلك المواقف بما يخدم مراده ويؤيد فكرته .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .
(٢) نفسه : ص٧٨ .

ويستخدم " ابن زريق " وسائل مساعدة في تشكيل الصورة مثل التكرار والتضاد وغيرها وإن كانت هذه الوسائل أقل خطراً من سابقتها في صناعة الصورة ذلك أنها تركز على دعم الفكرة وتوكيدها في أغلب الأحوال . فمن التكرار الذي يبين عن إحساس الشاعر بالضيق ما نراه في قوله " لا تعذليه فإن العذل يولعه " فتكرار كلمة عزل يشير إلى كثرة اللوم له وضيق الشاعر به وتكرار كلمة الخطب والخطوب في قوله " قد كان مضطلعاً بالخطب " ثم قوله " فضيقت بخطوب الدهر أضلعه " وهو ما يؤكد كثرة الخطوب وثقلها على الشاعر وأما تكرار كلمة سفر في قوله " ما آب من سفر " فيوحي بكثرة ترحاله وتنقله طلباً للرزق .

وفي القصيدة أمثلة كثيرة للتكرار يحسن معالجتها في دراستنا للتشكيل الموسيقي فيها ، ذلك أن هذه الظاهرة ألصق باللفظ وأقرب إلى الموسيقى وإن كانت لا تنفصل تماماً عن ظاهرة التضاد التي تتصل بالتشكيل الموسيقي ولكنها تسهم بشكل ما في معالجة الفكرة وصناعة الصورة ، ومن هذه الظاهرة ما جاء في قوله " يعطي ويمنع " مسنداً ذلك إلى الدهر فإلى جانب الاستعارة التي أشرنا إليها سابقاً يمنح التضاد فكرة الشاعر قدراً من التأكيد مفاده تحكم الدهر فيه وتصرفه في أقداره هذا إلى جانب تطوير الصورة والإسهام في تشكيلها ، وفي قوله:

ومـــا مجاهـــدة الإنســـان واصـــلةً رزقـــاً ولا دعـــة الإنســـان تقطعـــه[1]

فالمقابلة بين " مجاهدة " و" واصلة" من ناحية و" دعة " و" تقطعه" من ناحية أخرى تشير إلى شدة اقتناع الشاعر بفكرته ورغبته في بعثها في نفوس متلقيه .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

وفي حديثه عن عذره الذي يشبه الثوب المنخرق والذى يحاول ترقيعه، يضيف التضاد بين منخرق وأرقعه إلى الصورة قدراً من الإثارة وموسيقى اللفظ وتأكيد المعنى ، ما يجعل الموقف المصور أكثر دقةً وأشد تأثيراً .

وعلى كل حال فإن هذه الظاهرة أيضاً تتصل بالتشكيل الموسيقي في القصيدة اتصالاً كبيراً ،ومن ثم فإننا سوف نحاول الوقوف عندها وتناولها بصورة أكثر اتساعاً في دراستنا لموسيقى النص .

الفصل الخامس
موسيقى النص وأثرها في الرؤية والتجربة

يرتبط الشعر ارتباطاً وثيقاً بالموسيقى والإيقاع ، وذلك بحكم طبيعته ووظيفته وأداته التعبيرية ؛ ذلك أن اللغة قد حملت منذ بداياتها سمات كان أبرزها الإيقاع الصوتي والموسيقي . ومن ثم يمكن القول :" إن موسيقى الشعر ليست دخيلة عليه ولا مستعارة من فن آخر لأنها نابعة من أداة التعبير الشعري نفسها وهي اللغة " [١] .

وإذا كانت الموسيقى تشكل جزءاً أصيلاً من أدوات التعبير لدى الشاعر فإنها – ولا شك – تسهم إسهاماً واضحاً في الإعلان عن رؤية الشاعر وإبراز تجربته ، ومن ثم يتمكن المتلقي من الولوج إلى نفس الشاعر واكتشاف ما تنطوي عليه نفسه وما تموج به مشاعره، وإذا كان للموسيقى دورها في إخراج تجربة الشاعر إلى حيز الوجود فإن لمشاعر المبدع وأحاسيسه أثرها في تشكيل الموسيقى للقصيدة ، فالإحساس الباكي الحزين يطبع النسق الموسيقي بطابعه ، والشعور الفرح السعيد يلقي بظلاله على هذا النسق .

وهنا يمكن القول : إن العلاقة بين الموسيقى ورؤية الشاعر وتجربته هي علاقة تأثر وتأثير، ونقرأ قصيدة " ابن زريق " فنرى التشكيل الموسيقي وقد تأثر برؤية الشاعر وتجربته وذلك على مستوى الشكل الخارجي والداخلي للموسيقى في هذه القصيدة .

(١) محمد مندور : الأدب وفنونه ص٢٧ ، نهضة مصر ، للطباعة والنشر .

كذلك نرى أثر هذه الموسيقى في تجلية مشاعر " ابن زريق " وإبراز أحاسيسه والإعلان عن رؤيته لنفسه وظروف حياته ، وإذا اعتمدنا ما قال به بعض النقاد(١) من الربط بين عاطفة الشاعر والتشكيل الموسيقي في القصيدة أمكن القول إن عاطفة " ابن زريق " في هذا النص قد غلب عليها طابع الحزن والألم الناتج عن الغربة والفراق ، ومن ثم فقد حاول أن يوائم بينها وبين الموسيقى مواءمة تؤكد حرصه على أن تعلن الموسيقى عن مشاعره وتبين عن رؤيته ، فخير الموسيقى كما يقول سبنسر " ما تتماشى مع الافكار وتتساوق مع المعاني ،وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس " (٢) .

ولقد كانت الموسيقى بشكليها الخارجي والداخلي في القصيدة التي نحن بصدد دراستها متفاعلة مع شعور الشاعر متجاوبة مع الحالة النفسية له ، وهو ما سوف نقف عنده في دراستنا للموسيقى في القصيدة .

١ – الموسيقى الخارجية :

في دراستنا للموسيقى الخارجية نقف عند ظاهرتين هما عماد القصيدة العربية وهما الوزن والقافية .

أولاً ـ الوزن :

تأتي قصيدة " ابن زريق " في بحر البسيط وهو بحر كثير الورود في أشعار العرب(٣) . ويكفي أن نقول في الدلالة على كثرة وروده أن معلقتين من

(١) انظر : سيد البحراوي : موسيقى الشعر عند شعراء ابوللو ص٣٦ ، ٣٧ ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، دار المعارف .

(٢) د / محمد عبد المنعم خفاجي د / محمد نايل : بين الأدب والنقد ص٣٢ ، الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مطبعة الفجالة الجديدة .

(٣) انظر : إبراهيم أنيس موسيقى الشعر ٧١ ، الطبعة السادسة مكتبة ، الانجلو المصرية ١٩٨٨م .

المعلقات الجاهليات قد وردتا على هذا الوزن وهما معلقة " النابغة الذبياني " ومعلقة " الأعشى " . وهو من البحور ذوات التفعيلة المختلفة فوزنه (مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فاعلن) في كل شطر.

واستخدام " ابن زريق " لهذه التفعيلات المختلفة إنما يعبر عن عدم استقراره واختلاف ظروفه وأحواله ، فهو في ترحال مستمر وسفر طويل ، وفي إطار هذه الحالة تغشاه أوقات قليلة من الدعة والراحة ، وقد جاء استخدام الشاعر لهذا البحر موفقاً أيما توفيق ؛ إذ كان مناسباً للحالة التي يحياها ومعبراً عن العاطفة التي تتغشاه ، فإذا كان الشاعر في حالة سفر دائم وترحال طويل ناسب أن يستخدم الوزن مستفعل الكثير المقاطع والمتعدد الحروف تعبيراً عن هذا السفر الطويل والألم المستمر من ناحية ، ومحاولة للمقاومة ومجابهة هذا الألم من ناحية أخرى ، فإذا اراد أن يعبر عن حالات الراحة القليلة والإقامة القصيرة بين أهله ومحبيه جاء الوزن فاعلن قصير المقاطع قليل الحروف ، وفيه دلاله على عجزه عن مقاومة ذلك الألم المستمر وانقطاع نفسه في مجاهدة هذا التعب الشديد والسفر الدائم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا الوزن لقلة مقاطعه دلالة على الفترات السعيدة والقليلة التي يحياها بين أهله ومحبيه . وفي حذف الثاني الساكن من هذه التفعيلة وهو ما يسمى عند أصحاب العروض بالخبن والذي تتحول فيه فاعلن إلى فعلن وهذا التغير لازم للتفعيلة الأخيرة في ضرب البيت وأما في عروضه ووسطه فإن هذا التغيير لا يكون لازماً ، غير أنه في حالة لزومه أو عدم لزومه إنما يعبر عن حالة الشاعر القلقة اللاهثة التي تحاول المقاومة غير أنها سرعان ما تسقط عاجزة عنها ، وكأن ابن زريق الذى حاول إبراز قدرته على المقاومة بطول نفسه حين يستخدم الوزن مستفعلن يعبر عن انقطاع ذلك النفس وعجزه عن المقاومة حينما يعود إلى فاعلن وربما كان في استخدامه للوزن فاعلن الذي يحذف ثانيه

الساكن دلالة على شيء من الراحة أو الهدنة التي يأخذها الشاعر حتى يعود إلى المجاهدة ، ومن ثم يرتد إلى الوزن الطويل مستفعلن .

وإذا كانت عاطفة الشاعر حزينة باكية قلقة غير مستقرة كان استخدامه لهذا البحر موفقاً وملائماً لهذا النوع من العواطف ، فالشاعر " في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه " [1] وهو ما يجعلنا نقول إن اختيار الشاعر لهذا الوزن كان مناسباً وموفقاً.

ثانياً ـ القافية :

تمثل القافية جزءاً أساساً في موسيقى الشعر عموماً والشعر العربي خصوصاً ، فتكرار القافية في أواخر الأشطر أو الأبيات يعد " بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن "[2] .

ولسنا نريد الغوص في تعريفات القافية والبحث المستفيض في أشكالها وحروفها ، فهذا مما يبعد بنا عن ميدان الدراسة التي نحن بصددها ،غير أن ما نراه جديراً بالعناية هو الوقوف عند روي هذه القصيدة ؛ إذ هو العمود الذي تبنى عليه حتى تنسب إليه القصيدة أحياناً فيقال: نونية فلان وبائية فلان وهو ما يلقانا في

(١) د / إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص١٧٧ .

(٢) نفسه : ص٢٤٦ .

هذه القصيدة إذ يطلق عليها المؤرخون والنقاد عينية " ابن زريق " وهو رويها الذي بنيت عليه .

ويمكن أن يقال في تعريف الروي إنه هو الذي " يجب أن يشترك في كل قوافي القصيدة ذلك الصوت الذي تبنى عليه الأبيات " [١] ، والصوت الذي بنى عليه " ابن زريق " قصيدته هو " العين " وهو صوت من الأصوات التي تستعمل بكثرة روياً في أشعار العرب شأنها في ذلك شأن أصوات الراء واللام والنون والميم والباء وغيرها[٢] .

وتتجلى عاطفة الشاعر من خلال استعماله لهذا الصوت روياً وذلك بما يحمل من صفات تجلي كل صفة منها جانباً من جوانب عاطفة الشاعر، فالعين صوت بعيد المخرج بعد المسافات التي يقطعها الشاعر في أسفاره ، فهو حرف حلقي ومن هنا يعد صوتاً عميقاً عمق مشاعر " ابن زريق " التي تنطوي عليها ذاته وتغلي بها نفسه ، وهو إلى جانب ذلك صوت متسع اتساع جرح الشاعر شديد شدة حياته وما يغشاها من فقر وشظف عيش يدفعه إلى الترحال المستمر ، وليعمق الشاعر إحساسنا به يستعين بحرف الهاء رديفاً للروي " العين " وهو صوت يقترب من العين في مخرجه وفي صفاته ، ومن ثم يتآزر الروى ورديفه في تجلية مشاعر " ابن زريق " وإبراز عواطفه .

وبناءً على ذلك يمكن القول إن التزام الشاعر حرف العين روياً قد اكتسب قوة بإردافه صوت الهاء ، هذا إلى جانب ما يتحقق من اتصال الروي برديفه من

(١) د / إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر : ص٢٤٧ .
(٢) نفسه : ص٢٤٨ .

انسجام موسيقى يحقق للسامع متعة وإثارة تجعله ينجذب إلى القصيدة ومن ثم يتصل إحساسه بإحساس مبدعها .

٢ – الموسيقى الداخلية :

في دراستنا للموسيقى الداخلية في قصيدة " ابن زريق " يستوقفنا عدد من الظواهر لعل أبرزها التصريع . التكرار – التضاد – وغيرها .

وقد جعلنا هذه الأشكال من الموسيقى الداخلية لأنها تتصل بالمعنى من ناحية ، وتسهم في نقله إلى السامع من ناحية أخرى ، متبعين في ذلك الرأي الذي يحصر الموسيقي الخارجية في الوزن والقافية .

أولاً ـ التصريع :

يلاحظ القارئ لقصيدة " ابن زريق " ملمحاً موسيقياً له أثره في إبراز قدرة الشاعر وموهبته من ناحية وأثره في جذب المتلقي وإثارة انتباهه من ناحية أخرى ، وتلك هي ظاهرة التصريع والتي يعرفها علماء العروض بقولهم : " إن معناه هو أن يغير صيغة العروض فيجعلها مثل صيغة الضرب ، ويستصحب اللوازم في الموضعين " [١] .

ويذكر محقق كتاب القوافي رأياً لابن القطاع يقول فيه إن التصريع هو " ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصانه وتزيد بزيادته " [٢] .

(١) أبي يعلى التنوخي :كتاب القوافي ص٧٦ ، تحقيق عوني عبد الرؤوف ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م ، مكتبة الخانجي بمصر .

(٢) نفسه : ص٧٦ .

ويرى أحد المحدثين أن التصريع " هو أن يجعل الشاعر العروض والضرب متشابهين في الوزن والروى في البيت المصرع على أن تكون عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته " (١) .

ولسنا نرى كبير خلاف بين هذه التعريفات فكلها تصب في مجرى واحد ومفادها ذلك التشابه بين العروض والضرب من حيث الوزن والروي الذى يقع في القصيدة والذى غالباً ما يكون في مفتتحها وهو ما فعله " ابن زريق " فقد تشابه العروض والضرب في بداية القصيدة وذلك حين قال:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه(٢)

فقد تكرر حرف العين في العروض والضرب وكان وزن كليهما " فعلن " مع أن العروض في بعض أبيات القصيدة قد يأتي على " فاعلن " لكنه في مفتتحها وفي بعض الأبيات المصرعة في القصيدة قد تبع الضرب في حذف ثانيه الساكن .

وتمتد تلك الظاهرة إلى بعض أبيات القصيدة فيصرع " ابن زريق " أكثر من بيت فيها ، ويرى بعض النقاد أن التصريع في غير البيت الأول كثير ، وليس عيباً ، بل هو دليل على البلاغة والاقتدار على الصنعة(٣) .

وهم يرون أن استخدام التصريع داخل القصيدة إنما يكون عند انتقال الشاعر من قصة إلى قصة أو من حالة إلى حالة ، وهو يرون أن افتتاح الشاعر لقصيدته بهذا التصريع إنما يكون لأن البيت الأول بمنزلة باب القصيدة والقصة

(١) أميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر ص١٩٣ ، ١٩٤ ، دار الكتب العملية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٣) انظر : أبي على التنوخي ، القوافي ص٧٨ .

الذي يستفتح به وما ذلك إلا لأن التصريع مأخوذ من مصراعي الباب ، والأصل في ذلك صرعا النهار وهما الغداة والعشي[١]

وابن " زريق " حين يبدأ قصيدته بالتصريع كأنه يلفت انتباه القارئ إلى أهمية ما يقول أو كأنه يصطحبه في رحلة إلى مشاعره وأحاسيسه التي يبغي تعرف قارئه عليها ، فما التصريع إلا باب للقصيدة ومدخلٌ لها ، والشاعر حين يفتتح قصيدته بهذا اللون إنما يحقق تناغماً موسيقياً يأخذ بعقل قارئه ويجذب إليه قلبه وسمعه ، وربما يكون افتتاح الشاعر لقصيدته بالتصريع سببه المبادرة للقافية ليعلم من أول وهله أنه أخذ في كلام موزون غير منثور[٢] .

ولا يقف " ابن زريق " في تعامله مع هذه الظاهرة عند افتتاحه للقصيدة بل إنه يصرع في داخلها ولكنه لا يكثر من ذلك ، فأبياته المصرعة لا تتعدي الأربعة أبيات في مجمل القصيدة ، وفي هذا دلالة على عدم التكلف أو التصنع وإتيانه بهذه التصريعات على هذا النحو يدل على قوة طبعه وسلامة ذوقه وتوقد موهبته وثراء لغته .

وإذا كان تصريع الشاعر داخل القصيدة إنما يكون عند الانتقال من قصة إلى قصة ومن وصف إلى وصف ومن حالة إلى حالة كما يرى بعض النقاد[٣] فإننا نرى ظلالاً لذلك في تصريعات " ابن زريق " داخل القصيدة ، فإذا استعرضنا الأبيات المصرعة رأيناها تتصل بما قبلها وربما تكون تماماً لها وتكملة لفكرة سابقة عليها ، فها هو ذا يصرع في بيت يقول فيه:

---

(١) نظر : أبي على التنوخي ، القوافي ص٧٨ .

(٢) انظر : ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ١ ص١٧٤ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ ،١٩٨١م .

(٣) انظر : ابن رشيق العمدة : في محاسن الشعر وآدابه ونقده ص١٧٤ .

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه إربا ويمنعه من حيث يطمعه[١].

فقد جاء هذا البيت بعد حديث عن قسمة الرزق وحرص الناس عليه وصراعهم من أجله ، فكأن البيت المذكور قد جاء إكمالاً للفكرة وإتماماً لها ، وهذا ما ينطبق على التصريع الآخر الذي جاء في قوله :

ألا أقمت وكان الرشد أجمعه لو أنني يوم بان الرشد اتبعه[٢]

فالبيت جاء تكملة لحوار بين الشاعر وأحد ناصحيه الذي لامه على السفر ونصحه بالبقاء بين أهله ، ففي ذلك رشاده .انظر إلى البيت السابق عليه الذي يقول فيه .

كم قائل لي ذقت البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه[٣]

وربما وجدنا صدى لأقوال القدماء عن الحالة التي يصرع فيها الشاعر داخل القصيدة في هذا البيت الذى يتحدث فيه " ابن زريق " عن العهد بينه وبين حبيبه وإنه لا يمكن نقضه والذي يقول فيه :

من عنده لي عهد لا يضيعه كما له عهد صدق لا أضيعه [٤]

فقد جاء هذا بعد نهاية حديث الشاعر مع منزل المحبوبة ودعائه له وهذا كله لا يعني أن القاعدة التي وضعها بعض النقاد للتصريع داخل القصيدة ملتزمة أو تشكل ضرورة يجب على الشاعر اتباعها وبخاصة إذا كان الشاعر موهوباً متمكناً من فنه وصنعته ، وهنا يطلق العنان لنفسه فتخرج الفكرة في بيت مصرع أو غير مصرع . ويضع بعض النقاد قواعد تحكم علاقة مصراعي البيت وفيها يتحدثون عن

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص :٧٧

(٢) نفسه : ص٧٨ .

(٣) نفسه ص٧٨.

(٤) نفسه ص٧٨.

الرباط الذي يربط المصرع الأول بالثاني ، وهنا ذكر " ابن الأثير " لذلك مراتب سبعة تدور في فلك استقلال أحد المصرعين عن الآخر أو عدم استقلاله عنه .

وإذا وقفنا مع الأبيات المصرعة عند " ابن زريق " رأيناها في معظمها تأتي في المرتبة الثانية التي أشار إليها ابن الأثير بقوله : " أن يكون المصراع الأول مستقاً بنفسه غير محتاج إلى الذي يليه فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به " [1] .

وهذا ما ينطبق على بعض الأبيات المصرعة في عينية " ابن زريق " ففي مطلعها يقول لنفسه أو لحبيبته لا تلوميني فإن اللوم يسبب لي من الألم ما يجعلني أرقاً متوجعاً " لا تعذليه فإن العذل يولعه " وإلى هنا فالمعنى مستقل غير أن المعنى الذي يأتي في المصراع الآخر وإن لم يحتج إليه المعنى الأول إلا إنه يرتبط به ويضيف إليه، فهو يقول : إن لومك هذا في موضعه غير أنني لا يمكنني الاستماع إليه ، وهذا نفسه ما نراه في البيت المصرَّع الذي يقول فيه إن الدهر يعطي من حيث يمنع " والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه " فالمعنى في هذا الشطر مستقل ، ويأتي الشطر الآخر فيضيف معنىً يرتبط بالمعنى الأول بل يكاد يكون تكراراً له ، وذلك من باب توكيد المعنى وتثبيته في الذهن ، يقول :إن الدهر يمنع الفتى الخير من حيث كان يظنه ويعتقد وجوده ، ولا يختلف الأمر في البيت لذي ينصح فيه الشاعر بالإقامة بين أهله " ألا أقمت فكان الرشد أجمعه " ، ثم يأتي المعنى الثاني مرتبطاً بالأول وإن لم يكن ذلك الأول يحتاج إليه ، فقوله نادماً أنه لم يتبع الرشد حين ظهر له فكأن المصراع الثاني جاء تعقيباً على الأول وتعليقاً عليه، ويأتي البيت المصرع الأخير في القصيدة من المرتبة الخامسة من مراتب التصريع التي

(١) ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القسم الأول ، ص٢٥٩ ، تقديم وتعليق : أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية .

ذكرها ابن الأثير بقوله : " أن يكون التصريع في البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية ويسمى التصريع المتكرر " [١] .

فحين يقول " ابن زريق " إن بيني وبين الحبيبة عهد لا يضيع وعقد لا ينفك ، نرى المصرع الثاني يأتي تكراراً للأول يقول :

من عنده لي عهد لا يضيعه كما له عهد صدق لا أضيعه [٢]

وعلى كل حال فقد أحسن " ابن زريق " حين لم يستخدم التصريع بكثرة مفرطة فربما كان ذلك دلالة على تكلف الشاعر ، ولكنه في قصيدته قد اقتصد فيه فجاء سهلاً غير مصنوع ولا متكلف يدل على صفاء ذهن المبدع وقوة طبعه وثراء لغته وعظم موهبته .

ثانياً ـ التكرار:

لقد أولى " ابن زريق " التكرار عناية خاصة ذلك أنه أداة مهمة لإحداث شكل من أشكال الموسيقى التي تثير المتلقي من ناحية ، وهو وسيلة لتقوية المعنى وتوكيده وتنميته وتطويره من ناحية أخرى ، ما يجعله أكثر ثابتاً في الذهن وأشد اتصالاً بالعقل والقلب .

ويبدو حرص " ابن زريق " على هذه الظاهرة واضحاً حين ندرك أن معظم أبيات قصيدته تشتمل على تكرار لفظ أو أكثر ، وقل أن نجد بيتاً يخلو من تلك الظاهرة ، كما يبدو ذلك الحرص واضحاً في بدء الشاعر قصيدته ببيت يحوي هذه الظاهرة " لا تعذليه فإن العذل يولعه " فتكرار كلمة عذل يشير إلى كثرة لومها له مع عظم أثر هذا اللوم في نفسه ، وكذلك تكرار كلمة نصح في البيت الذي بعده يؤكد

(١) ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر القسم الأول ، ص٢٦١ .
(٢) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٨ .

المعنى السابق وهو تكرار النصح من الحبيبة مع عدم سماع الشاعر له ، هذا بالإضافة إلى ما أحدثه ذلك التكرار من جرس موسيقي ناتج عن خفة هذه الكلمات وفصاحتها وسهولتها في الوقت نفسه .

ونمضي مع الشاعر وهمومه وألمه حيث تكاثرت عليه الخطوب ، فنجده يكرر هذه الكلمة مفردة أولاً ومجموعة ثانياً وهو بذلك يعبر عن كثرتها واستمرارها يقول :

قد كان مضلعاً بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه[1]

إن الموسيقى التي أحدثها التكرار في هذا البيت تثير المتلقي وتجعله متصلاً بشعور الشاعر لصيقاً بوجدانه وإحساسه ، وذلك من خلال استعمال التكرار بطريقة جيدة بدت في استعمال الجمع بعد المفرد موحياً بتطور الحالة الشعورية وتصاعدها بطريقة لافتة ، وهو بذلك يجذب ذهن المتلقي إليه فلا يدع له فرصة لأي شرود ، ومن ثم يجعله في حالة حضور دائم يقظ نتيجة للإيقاع النغمي الموسيقي الذي أحدثه هذا التكرار . و" ابن زريق " في حالة سفر مستمر متكرر ومن ثم كان طبيعياً تكرار كلمة السفر ما يترتب عليها من الوداع وغيره فها هو ذا يتحدث عن نفسه فيقول :

ودعته وبودي أن يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه[2]

وتكرار كلمة ودع يوحي بثقل اللحظة على الشاعر فهي لا تكاد تمضي فالوداع مستمر لا ينتهي وهو ما يعمق الإحساس بالألم لدى الشاعر ، فإذا أضفنا

(1) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه ص٧٧.

إلى ذلك عذوبة الكلمة وجمال مقاطعها أمكن القول إن الشاعر قد نجح في تحقيق هدفه وتصوير مشاعره وجذب سامعه .

ويتحدث الشاعر عن الدهر ومعاداته له فيقول : إن الدهر منوع في أغلب أحواله ومن ثم تتكرر كلمة المنع متصلة به ، يقول :

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه أرباً ويمنعه من حيث يطمعه[1].

وعلى هذا النحو تتكرر كلمة " أدمع " عند الشاعر موحياً بكثرتها في موقف الوداع، وكذلك تتكرر كلمة " ملك " تعبيراً عما كان يحياه الشاعر من نعيم وسعادة في ظل أحبائه وأهله .

ويبلغ الشاعر درجة من الروعة حين يعبر عن ألم الفراق ويصوره كأساً من المر والعلقم يتجرعه مرة بعد مرة في شدة وألم وهنا يكرر لفظ التجرع تعبيراً عن تقبله لهذا الشراب المر مع شدته، يقول :

اعتضت من وجه خلى بعد فرقته كأساً تجرع منها ما أجرعه[2]

إن كؤوس المر التي يتجرعها ليست محدودة وللسامع أن يتصورها كيفما أراد ، فتكرار لفظ " التجرع " مع " ما " التي تفيد الإبهام تجعل المقدار المتجرع مبهماً وللعقل أن يذهب في تحديده كل مذهب .

ويمكن القول : إن التكرار في معظمه عند " ابن زريق " كان دافعه شعوريا ، ومن ثم جرى على لسان الشاعر في عفوية دون تصنع أو تكلف ، وهذا لا يمنع من أن بعض تكرارات الشاعر قد أملتها عليه المواقف والسياقات والوضع اللغوي ، وهذا لا يعني تكلفها بل قد تأتي موافقة للموقف والسياق فتصبح

(١)صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه ص٧٧.

ملائمه ومناسبة ، وهذا ما نراه في تكرار ألفاظ مثل " الرشد – هجع . أهجعه – عهد ... وغيرها " على أننا نلاحظ أن الشاعر لم يركز في قصيدته على ألفاظ بعينها تتكرر في عدد من أبياتها وما ذلك إلا لأن الرجل صاحب شعور قلق غير مستقر ، ومن ثم فهو لا يتأنق في صنع أساليب ولا يتعمد إبراز قدرة على الصياغة .

ثالثاً ـ التضاد :

يتصل التضاد بالموسيقى اتصالاً غير مباشر ذلك أنه يتعلق باللفظ والمعنى معاً ، والتضاد ويطلق عليه الطباق هو الجمع بين المتضادين أي المعنيين المتقابلين في الجملة[1] .

ونطالع قصيدة " ابن زريق " فنجد هذا الشكل البديعي يأتي به الشاعر بقصد تعميق المعنى وتوكيده ، بالإضافة إلى إضفاء مسحة من الموسيقى على القصيدة ، وهو مع ذلك يأتي به في غير قصد ولا تكلف . على أن " ابن زريق " لم يكثر من هذا اللون فقد جاء به حيث اقتضاه الموقف الشعوري أو الفكرة التي يعالجها ، ويمكن تقسيم التضاد في القصيدة قسمين: فالأول هو طباق بالإيجاب والثاني هو طابق بالسلب .

ونقف قليلاً مع أمثلة هذا اللون حتى يتأكد لنا ما المحنا إليه من قواعد اعتمدها الشاعر في قصيدته ، فمن النوع الأول ما رأيناه في حديثه عن مجاوزة الحد في اللوم من الحبيبة ومدى أثر ذلك عليه ، فقد قدرت أن النصح ينفعه بينما يرى الشاعر أن في ذلك ضرراً له

(١) انظر : الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة جـ٦ ، ص٦ ، ٧ ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، المكتبة الأزهرية للتراث الطبعة الثالثة ١٩٩٣م .

جاوزت في لومه حد المضر به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه[1]

فالتضاد بين " أضر وينفع " قد أكد فكرة الشاعر وأضاف إلى الموسيقى جرساً يلفت نظر سامعه ويثير انتباهه بما يخلفه في آذانه من أثر ويؤكد كثرة سفره وطول ترحاله فيستعمل التضاد مثبتاً تلك الفكرة فهو في حله ومرتحله كأنه موكل بفضاء الأرض يذرعه[2] .

ولعل سامع هذا البيت يدرك ما في كلمتي حل ومرتحل من جرس موسيقي يطرب له ومن ثم يحاول سبر المعنى الذي يرمي إليه الشاعر .

ولتأكيد فكرة الشاعر التي مفادها أن الرزق مقسوم فلا يحصله الإنسان بجهد ولا ينقطع عنه بقعود فيستعمل المقابلة بين مجاهدة وواصلة وبين دعة وتقطعه ، يقول :

وما مجاهدة الإنسان واصلة رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه[3]

ولعلنا بقراءة هذا البيت ندرك ما أحدثته المقابلة من تأكيد للفكرة وإلحاح عليها وإثباتها بما لا يدع مجالاً للشك فيها ، وواضح ما في هذه المقابلة من جرس موسيقي ينساب في البيت من خلال خفة الكلمات ويسرها على السمع ، ومن ثم يأتي تفاعل السامع مع الفكرة واقتناعه بها . وفي حديثه عن تصاريف الدهر وأفعاله مع الناس يؤكد أن الدهر قد يعطي الإنسان من حيث لا يتوقع العطاء ويمنعه من حيث لا يتوقع المنع.

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه إرباً ويمنعه من حيث يطمعه[1]

---

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه ص٧٧.

(٣) نفسه ص٧٧.

وفي معرض الحديث عن صبره وآماله في لقاء محبوبة يلقى الشاعر بحكمة أو فكرة مفادها أن بعد الصبر الفرج وأن في الضيق سعه إذ ما تأملت الأمر جيداً ، يقول :

علماً بأن اصطباري معقب فرجاً فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه [٢]

فالمطابقة بين " أضيق " و " أوسع " قد أكدت الفكرة بما حوت من جرس موسيقي يتسرب إلى أذن السامع ومن ثم إلى شعوره فيجعله مهيأ لقبول الفكرة والاقتناع بها ، وعلى هذا النحو جاءت المطابقة بين قوله لابساً وينزعه وقوله فرقتنا وتجمعنا وغيرها .

وأما النوع الثاني : وهو الطباق بالسلب فقد رأيناه عند " ابن زريق " وإن لم يكثر منه إلا أنه جاء موافقاً للفكرة والسياق الذي ورد فيه ، ومنه ما جاء في حديثه عن موقف وداعه للحبيبة فرأيناه يطابق بين كلمة ودعته وبين كلمة لا أودعه يقول :

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وإني لا أودعه[٣]

وأنت تحس وتشعر بذلك الرنين الموسيقي الآثر من خلال ذلك التضاد وتعاونه مع التكرار ، بالإضافة إلى جمال اللفظ وسهولة منطقة . وفي حديثه عن أرقه لفراق المحبوبة يقول إن الناس يهجعون مطمئنين في حين أبقى ساهراً ليلى غير هاجع ولا مستريح ،انظر إليه يقول :

بمن إذا هجع النوام بت له بلوعة منه ليلى لست أهجعه [١]

---

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

(٢) نفسه : ص٧٨ .

(٣) نفسه : ص٧٧ .

ويمكن القول إن الطباق بنوعيه قد أسهم في توصيل فكر الشاعر وتصوير إحساسه وشعوره من خلال موسيقى تنساب في سهولة ويسر فتغلف المعنى أو الفكرة بغلاف رقيق بحيث يتقبله السامع بشيء من التطلع والشغف وربما الإعجاب .

رابعاً ـ مناسبة اللفظ للمعنى :

والشاعر في قصيدته تأتي الفاظه مناسبة لمعانيه معبرة عنها تمام التعبير فأنت تسمع ألفاظاً في قصيدته فتتصور المعنى تصوراً واضحاً ، ومن ثم يلج إلى ذهنك وعقلك دون تعمل أو تكلف ، فهو يعبر عن اللوم مثلاً بالعزل وهو لفظ يوحي بمراد الشاعر وهو شدة وقع هذا اللوم على قلبه ، وحين يعبر عن قلقه يستخدم الشاعر كلمة " أزعجه " وأي لفظ يعبر عن القلق أكثر من هذا اللفظ ، فكان هذا الرأي المزعج قد هز الشاعر في أعماقه وحرك مكامن الألم في نفسه ، أرأيت تعبيراً عن القلق أقوى من هذا التعبير؟ وحين يتحدث عن جمال حبيبته يستخدم لفظ قمر حتى يجمع الجمال من جميع أطرافه ويكون قد نقل إلى المستمع صورة معبرة عن تلك الحبيبة من ناحية وتصور الشاعر لها من ناحية أخرى ، وحين يعبر عن منزله الذي كان يعيش فيه قبل سفره يستخدم ألفاظاً قد تكون موغلة في القدم لكنها معبرة عن ضياع تلك الحياة وتسربها من بين يديه ، يعبر عن ذلك بألفاظ من قبيل " دارسة ،عفت ، أربعه " وكلها ألفاظ وإن كانت قديمة إلا أنها معبرة عن شعور صاحبها محدثة لرنين موسيقي جاذب وأخاذ وعلى هذا النحو جاءت معظم ألفاظه متناسبة مع معانيه ، ومن ثم كانت تلك الموسيقى الداخلية المتولدة من تلائم اللفظ مع المعنى .

---

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٢١ ، ص٧٧ .

مما سبق يمكن القول إن " ابن زريق " في قصيدته قد استعان بمؤثرات موسيقية متعددة أبرزها الوزن والإيقاع والأسلوب المنغم واللفظ الموسيقي والتكرار والتضاد وغيرها. ومن ثم أمكنه أن يشكل من الجملة الشعرية رنيناً صوتياً متلائماً مع صوت العاطفة المتردد في وجدانه وهو جعلنا ندرك أننا أمام تجربة صادقة ، وحالة شعورية قد أثرت تأثيراً مباشراً في التعبير الشعري ومن هنا جاء تأثرنا بانفعالات الشاعر ودرجة الصدق في عاطفته .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد .

لقد شكلت عينية " ابن زريق " ميداناً لهذه الدراسة التي طوفت بنا في جوانب القصيدة المختلفة ووقفنا من خلالها على عناصر الإبداع الفني فيها ، وقد آثرنا التقديم لهذه الدراسة بتمهيد عرضنا فيه لحياة الشاعر ثم ذكرنا القصيدة موضوع الدراسة مع شرح موجز لها ، ثم توجهت الدراسة صوب موضوع البحث فتعرضت لعنصر التجربة في القصيدة وعلاقتها بالعاطفة من ناحية وبقية العناصر الفنية من ناحية أخرى ، وتنطلق الدراسة في فصلها الثاني لتعالج اللغة في النص وتتناول أسلوب المبدع فيها متعرضة لمستويات اللغة وعلاقتها بالتجربة وتعبيرها عن شعور المبدع ، وتعرض الدراسة لعنصر الوحدة في القصيدة فتتناول أشكالها وطريقة الشاعر في تحقيقها ، ثم كان الفصل الرابع ميداناً وقفنا فيه عند الصورة الفنية في القصيدة من حيث منابعها وأشكالها ووسائلها، وجاء الفصل الخامس دراسة للتشكيل الموسيقي للقصيدة فتوقفنا عند الموسيقى الخارجية والداخلية مبينين مدى التفاعل بينها وبين عناصر النص عموماً وتجربة المبدع خصوصاً .
وقد انتهت هذه الدراسة إلى نتائج أهمها :

١ – تميزت القصيدة بصدق عاطفي تبدى فيما بدا فيها من أصالة وبعد عن التكلف والتقليد بالإضافة إلى صدورها عن شعور حي تذكيه حرارة التجربة وترفده معاناة الواقع .

٢ – أظهر البحث أن التجربة في القصيدة تجربة شخصية ذاتية تولدت عنها تجربة إنسانية وقد كان للمشاعر الخاصة والعقيدة وتجارب الحياة الأثر الأكبر في تشكيلها .

٣ – أثبتت الدراسة دور الزمن في حياة الشاعر وذلك حين تحدث عنه كثيراً وعبر عنه بألفاظ مختلفة واستخدمه في الماضي والمستقبل حسب الحالة المسيطرة عليه .

٤ – استخدم " ابن زريق " الفعل مبنياً للمعلوم بكثرة ولم يظهر في قصيدته الفعل المبني للمجهول إلا لماماً ما يشير إلى علمه بسبب معاناته وبواعث قلقه .

٥ – لغة القصيدة تكاد تخلو من الخطأ النحوي وهي مع ذلك يسيرة سهلة قريبة من لغة الحياة المستعملة في عصره .

٦ – استطاع الشاعر الجمع بين معاني وجزئيات بدت متنافرة في القصيدة فحقق لها شكلاً من أشكال الوحدة الفنية .

٧ – كان للصورة دورها الكبير في بناء القصيدة فأسهمت في نقل تجربة صاحبها من ناحية وإقامة بناء فني متماسك في النص من ناحية أخرى .

٨ – تعددت منابع الصورة وهو ما منحها قدرة على القيام بدورها في بناء القصيدة وأتاح للمبدع التعبير عن مشاعره في سهولة ويسر .

٩ – أولى الشاعر عنايته للاستعارة وبخاصة المكنية منها فشكلت عنده عماد الصورة ومن ثم تفوقت على الكناية والتشبيه في قصيدته .

١٠ – حقق الشاعر تفاعلاً بين الموسيقى والعاطفة فانعكس كل منهما على الآخر ما أسهم في نقل أحاسيس الشاعر ومشاعره إلى متلقيه .

وإذ كانت هذه الدراسة قد أفضت إلى نتائج ذكرنا بعضها وتركنا بعضها مبثوثاً في تضاعيف البحث فإن صاحبها يوصي إخوانه من الباحثين بالتنقيب في بطون الكتب عن شخصية " ابن زريق " ومحاولة البحث عن إبداعه فربما أفضى ذلك إلى الوقوف على نتاج شعري وأدبي يكون جديراً بالدراسة والبحث .

هذا وبالله التوفيق .

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر[1] .

- **ابن الأثير : (ضياء الدين نصر الله بن محمد ت ٦٣٧هـ) .**

– " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " تقديم وتعليق : أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، طبعة : نهضة مصر ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

- **البتلوني (شاكر بن مغامس بن محفوظ بن صالح ت ١٣١٤هـ) .**

– " نفح الأزهار في منتخبات الأشعار " تحقيق : إبراهيم اليازجي ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

- **التنوخي (أبو يعلى عبد الباقي عبد الله ابن المحسن ت القرن الخامس . هـ) .**

– " كتاب القوافي " تحقيق : عوني عبد الرؤوف ، مكتبة الخانجي ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

- **الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ) .**

– " تاريخ بغداد وذيوله " تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .

- **الخطيب القزويني (محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين ت ٧٣٩هـ).**

– " الإيضاح في علوم البلاغة " تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م .

(١) رتبت هذه المصادر ترتيباً ألف بائياً مع إغفال الكلمات مثل : " أب " ، " ابن " ، " أل " التي للتعريف .

- ابن رشيق (أبي على الحسن القيرواني الأزدي ت ٤٥٦هـ).

– " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبعة : دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ /١٩٨١م

- الصفدي (صلاح الحين خليل بن أيبك بن عبد الله ت ٧٦٤هـ).

– الوافي بالوفيات " تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، طبعة : دار إحياء التراث ، بيروت ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

- عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ).

– " أسرار البلاغة " تعليق : محمود محمد شاكر ، طبعة : دار المدني ، جده ١٩٩١م .

– " دلائل الإعجاز في علم المعاني " تعليق : محمد شاكر ، الهيئة العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م .

- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧هـ) .

_ " القاموس المحيط " الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

- ابن ماكولا (علي بن هبة الله جعفر ت ٤٧٥ هـ)

– " الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب " طبعة : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١هـ ، ١٩٩٩م .

- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ت ٧١١هـ) .

– " لسان العرب " دار صادر بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ .

- ابن منقذ (أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي ت ٥٤٨هـ).

ـ "البديع في نقد الشعر " تحقيق : أحمد بدوي و حامد عبد الحميد، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠م .

ثانياً ـ المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم أنيس .

– " موسيقى الشعر " طبعة : مكتبة الأنجلو، القاهرة، الطبع السادسة، ١٩٨٨م .

- أحمد هيكل .

– " تطور الأدب الحديث في مصر " طبعة : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩١٧م .

- السعيد الورقي .

– " لغة الشعر العربي الحديث ، مقو ماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية " طبعة : دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

- إميل بديع يعقوب .

– " المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر " طبعة : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٩١م .

- أيمن ميدان .

– " الصورة الفنية في الشعر الغرناطي " طبعة أكتوس للترجمة والنشر ، بيروت ١٤١٧هـ ، ١٩٩٩٧م .

- بسيوني عبد الفتاح فيود .

– " علم المعاني ، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني " طبعة : مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م .

- تشارلتن .

– " فنون الأدب " ترجمة : زكي نجيب محمود ، طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٥٠م .

- جون كوين .

– " اللغة العليا " ترجمة : أحمد درويش ، طبعة : المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٥م .

- سيد البحراوي .

– " موسيقى الشعر عند شعراء أبو للو " طبعة : دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م .

- صلاح رزق .

– " من النص الأدبي ، عصر صدر الإسلام وبني أمية " القاهرة ، ١٩٩٩٢م.

- عباس محمود العقاد .

– " ابن الرومي ، حياته من شعره " طبعة : دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٩م.

.

- عباس محمود العقاد ، إبراهيم عبد القادر المازني .

– " الديوان في الأدب والنقد " طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٠م .

- عبد الحميد هلال .

– " في النقد الأدبي الحديث ، مذاهب وقضايا " مطبعة الأمانة ، القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

- عبد الرحمن عثمان .

– " مذاهب النقد وقضاياه " شركة الإعلانات الشرقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٥م ، ١٩٧٥م .

- عبد القادر الرباعي .

– " الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى " طبعة : دار العلوم ، الرياض ١٩٨٤م .

- على عشري زايد .

– " عن بناء القصيدة العربية الحديثة " مكتبة دار العلوم ، القاهرة ١٩٧٨م.

- عمر رضا كحالة .

– معجم المؤلفين " طبعة : دار إحياء التراث العربي ، مكتبة المثني ، بيروت ، بدون تاريخ .

- فوزي خضر .

– " عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون " طبعة : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة : " كتابات نقدية " عدد رقم (١٤٧) القاهرة ، ٢٠٠٤م .

- مجدي وهبه ، كامل المهندس .

– " معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب " طبعة : مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م .

- محمد التنجي .

– المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

- محمد السعدي فرهود .

– " قضايا النقد الأدبي الحديث " طبعة : دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .

- محمد عبد المنعم خفاجي ، محمد نايل .

– " بين الأدب والنقد " مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- محمد غنيمي هلال .

– " النقد الأدبي الحديث " مطبعة : نهضة مصر ، القاهرة ١٩٩٦م .

- محمد مندور .

– " الأدب ومذاهبه " طبعة : نهضة مصر ، للطباعة النشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- مدحت سعد الجيار .

– " الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي " طبعة : الدار العربية للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م .

ثالثاً ـ المقالات والرسائل العلمية :

- عبد العزيز موافي .

– " مهدي الجواهري وخصائص فنه " رسالة ماجستير غير منشورة ، بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، أجيزت سنة ١٩٨٢م .

- قيس كاظم الجنابي .

ـ " من أنماط الصورة في الشعر العراقي الحديث " مجلة " البيان " الكويتية ، عدد رقم (٧٠) ديسمبر ١٩٨٨م .